كتاب
الحج وأسراره
للحكيم الترمذي

تحقيق وضبط

حسني نصر زيدان

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

مطبعة السعادة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، خير أسوة حسنة ، أتى بأحكم الشرائع وأيسرها ، وأوضح للناس معالم الحق . فكان هدى للناس ورحمة للعالمين .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ .

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » .

وبعد :

فقد فرض الله سبحانه وتعالى فريضة الحج على المسلمين ، وجعلها إحدى الدعائم الخمس التى أقيم الإسلام عليها ، بحيث أن من استوفى شرائطها ولم يؤدها فإن الله يكون غنياً عنه وعن عمله ، لأنه بذلك يكون

قد كفر بنعمة ربه ولم يؤد شكر هذه النعمة ، وبذلك يكون قد هدم ركناً هاماً من أركان الإسلام ودعائمه .

والمتأمل فى الأحكام الشرعية التى فرضها الله على عباده : يلاحظ أن للبدن فيها نصيباً ، كما أن للروح فيها حظاً ، وربما كان الجانب الروحى أدق لما له من خواص قد تخفى على العوام ، فلا بد إذن لكى يؤدى الإنسان العبادة على وجهها الأكمل أن يستوفى فيها حظ البدن ، ونصيب الروح ، فلا تكون تامة ولا كاملة تلك العبادات التى تؤدى بالجوارح فقط دون مراعاة لجانب الروح ، فإذا غفل القلب أثناء العبادة عن استحضار المعبود ، تكون تلك الأعمال البدنية صوراً ميتة ، وأشباحاً باهتة لا خير يرجى منها . وإنما حياة الأعمال وروحها بالإخلاص والنية الصادقة .

وفريضة الحج : إحدى هذه الفرائض الإسلامية التى تجمع بين العبادة البدنية والروحية ، من حيث انتقال الجسد من موطن إلى موطن ، ومن حيث انتقال الروح وقصدها من جانب المادة إلى جانب القدس الأعلى ، ومن حضيض الدركات إلى ذروة الدرجات .

فالحج ظاهره : الانتقال من وطنك إلى مكة المكرمة عن طريق الجسد ، وباطنه الفرار من الدنيا إلى الملكوت الأعلى بواسطة الروح .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ .

ففى كل ركن من أركان الحج مشاهد ملكوتية ، وأنوار ربانية ، لا يحظى بها إلا من قبل الله منه ، وأذن له بالدخول فى حرمه .

فحينما يحرم الإنسان : يشهد إخلاص القلب من كل حظ وهوى ، فى التوجه إلى الله تعالى ، وتطهير سره من كل غرض وعلة ، ويقطع كل علاقة بينه وبين الأهل والولد : إقبالا على الله ، ورغبة فيما عند الله ، وثقة بولاية الله . ويظل ينتقل من مشهد إلى مشهد ، ومن نور إلى نور ، حتى يقف على عرفات نفسه ، فيعرف ربه ، فإذا عرف نفسه بنقائصها ومعايبها ، عرف ربه بكماله وجلاله وجماله . وهنالك يكون أهلا للضيافة الربانية ، فيستحق حينئذ أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإنما ييسر الله الحج لمن سمعت روحه دعاء الله بدءاً فلبى ، وسمع بأذن قلبه أذان الخليل — عليه السلام — بعد سماع أذن رأسه آيات القرآن تتلى ، ومن لم يسمع هذا الأذان من الله تعالى ، ولم يسمع نداء الخليل : فهو من الخوالف . قال تعالى : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر » .

وقال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

والحج جهاد للنفس فى الله تعالى ، إنه طهرة من الذنوب كما قال عليه الصلاة والسلام : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

فالله تعالى قد أمر من قصد زيارته فى بيته أن يتجرد من الرفث والفسوق والجدال ، التى هى أصول الخطايا ، ليحظى بالمواجهة ، والملاطفة من صاحب البيت ، ويرجع من هذا الجهاد بالحج المبرور .

والحج سفر إلى الله تعالى ، وفرار من الكون الفانى لزيارة ربنا جل جلاله فى بيته ، لأن الحاج يفارق وطنه وماله وأولاده .

وهذه الفريضة واجبة على المسلم فى العمر مرة ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم » .

ولما كان الحج محلا للرياء والسمعة نبه سبحانه وتعالى بقوله : « وأتموا الحج والعمرة لله » ، ولم يذكر سبحانه فى الصلاة أو الصوم أو الزكاة قول « لله » ، فواجب المسلم إذن أن يفرد الله بالقصد دون غيره ، وإلا فإن الله غنى عنه وعن عمله ، بل وعن العالمين .

* * *

ولما كان لتلك الفريضة الإسلامية مكانتها من بين الفرائض ، وأهميتها من بين العبادات ، فقد اخترت إحدى الرسائل الهامة التى تناولت مناسك الحج ومشاهده بالتحليل ، كى أقدمها للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها حتى يتزودوا بالمعرفة ويحيطوا بأسرار دينهم وأحكام شريعتهم . وهـــذه الرسالة تعتبر من أدق الرسائل التى تتعرض لتحليل العبادات ومحاولة التعرف على دقائق الشريعة وعللها ، ولا غرو أن تكون إحدى مؤلفات « الحكيم الترمذى » وسوف نتناول بالتعريف حياة هذا المؤلف . ثم نثنى بتحليل هذه الرسالة الجليلة .

أولا :

حياة الحكيم الترمذى :

هو أبو عبد الله : محمد بن على بن الحسن بن بشير ، الملقب بالحكيم الترمذى أحد أعلام الصوفية ، وأحد مشاهير المحدثين .

ولد — رحمه الله — فى العشرة الأولى من القرن الثالث الهجرى ، بمدينة ترمذ على الضفة الشرقية لنهر جيحون شمال إيران ، والمشهورة بأكابر العلماء والمحدثين والفقهاء .

ارتحل الحكيم الترمذى فى السابعة والعشرين من عمره إلى العراق طالبا للحديث ، ومنها إلى البصرة ، وأخيراً رحل إلى مكة المكرمة حيث بدأت روحه تصفو وتستعد للفتوحات الإلهية ، وانتهى به المطاف أن رجع إلى وطنه ، وأصبح يميل إلى الخلوة ، ويأتنس بالوحدة .

إلى أن تفتحت آفاقه العلمية ، فأخذ يرتحل إلى البلاد تحصيلا للعلم وازدياداً للمعرفة ، فذهب إلى بلخ حيث بدأ يتجه إلى دراسة ذات شعبتين : أولاهما : « طلب الحديث » ، والثانية : دراسة التصوف واتصاله بالصوفية . ثم نراه يرحل إلى بغداد باحثاً عن أهل الحديث منشداً طريق الصوفية ، فالتقى هناك بمجموعة كبيرة من العلماء ، أخذ عنها ما شاء له أن يأخذ ، ثم يعود إلى بلدته ترمذ ليبدأ حياة علمية جديدة قائمة على التأليف والتعليم ، والتربية والتهذيب ، بعد أن قضى فترة

الدراسة والرحلة والتعلم ، ولقد كانت تلك الفترة من حياته — وتقع حوالى ٢٦٠هـ — من أخصب حياته العلمية ، إذ أنه ألف خلالها كتابيه المعروفين : « ختم الأولياء » . والآخر « علل الشريعة » ، ولكن القوم ثاروا عليه فى بلده فطردوه من ترمذ ، وتقولوا عليه مالم يقله ، واتهموه بأنه يدعى النبوة ، ويقول بالمحبة ، فسافر إلى بلخ ، فأكرمه أهلها وقدروه حق قدره ، فأقام بينهم حتى توفى حوالى سنة ٣٢٠ هـ ، وإن كان بعض الباحثين يرجح وفاته سنة ٢٩٦ هـ ، وآخرون يقولون إنه توفى سنة ٢٨٥ هـ . ولكن الراجح لدينا أنه توفى بعد سنة ٣١٨ هـ حيث يذكر لنا فى رسالة الحج التى بين أيدينا هذه ما يؤكد وجوده وحياته سنة ٣١٧ هـ حين سلب القرامطة الحجر الأسود ونقلوه من مكانه ، وتجمع المصادر التاريخية على أن ذلك وقع سنة ٣١٧ هـ .

وقد جاب الآفاق ، وارتحل للعلم والتعليم ، حتى إنه نظم جماعة عرفت باسم « الحكيمية » تبنت تعاليمه ، وأخذت بمنهجه .

كل ذلك فى إطار من علوم الشريعة والحقيقة ، ساعده على ذلك إحاطته بعلم الظاهر من فقه وحديث وتفسير وغيره، وتذوقه لعلم الباطن بعد أن راض نفسه وجاهدها فانكشفت له الحقائق وفاضت عنه المعرفة الربانية ، فاستطاع بذلك أن يقف فى مصاف أولئك العلماء الحكماء الذين أيدهم الله بنور من عنده ، فكان عارفاً بربه ، فقيها بشرعه ، قطباً فى عصره ، نقيباً لمصره .

منهجـــه :

يمتاز الحكيم الترمذى بتحليله الدقيق للنفس الإنسانية ، ووضع المنهج السليم لتربيتها ، ونجد هذا واضحاً كل الوضوح من خلال قراءتنا لمؤلفاته الصوفية والأخلاقية أمثال : الرياضة وأدب النفس ، الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ، إثبات علل الشريعة . . . بل إنه ليوضح لنا العلاقة بين النفس الإنسانية والأعضاء الجسمانية . ويربط بينهما فى إطار بديع ، ينم عن دراية بخفايا الأجسام ، وخبايا النفوس . ولعل مرد ذلك إلى دراسته لكتب الطب والتشريح التى كانت ترجمت على عهده من اللغات الأخرى .

أسلوبه فى التأليف :

وأما عن أسلوبه فى التأليف فقد كان يمتاز بالبساطة فى الألفاظ ، وكثيراً ما يطيل القول فى موضوع ما بغية تفهيمه للقارىء بشتى الوسائل بأسلوب بعيد عن التعقيد والغموض ، محاولا الاستدلال على قوله من القرآن والسنة ، وكثيراً ما يورد الأمثال والقصص فى مؤلفاته تقريباً لأفهام القراء حسب مداركهم ومتناول فهمهم .

مؤلفاته :

ويمكن القول بأن الحكيم الترمذى لم يحظ من الشهرة والجاه بالقدر الكبير ، وربما يرجع ذلك إلى ما شنعه عليه منافسوه بسبب تأليفه

كتابى : ختم الأولياء وعلل الشريعة ، مما أساء إليه وأثر على سمعته ، فهجره الناس آنذاك ، وتركوا مصنفاته على كثرتها وأهميتها : تغوص فى بطون المكتبات ، بل إن أكثرها قد فقد والبعض الآخر نراه موزعاً بين مكتبات العالم ، كل هذه العوامل جعلت هذه الشخصية العلمية الممتازة تندثر ردحاً كبيراً من الزمن ، لم يكشف عنها النقاب ، فبقيت مدة طويلة مجهولة ، ولم تدرس الدراسة اللائقة بها ، وقد نشط فى الآونة الأخيرة مجموعة من الباحثين والعلماء فأخرجوا لنا بعضاً من هذه الكنوز الثمينة ، وقاموا بدراسات قيمة حول هذه الشخصية الجليلة . فقدموا لنا تراثاً إسلامياً جديراً بالبحث والقراءة ، ومن ذلك كتاب : « ختم الأولياء » ، وكتاب « الرياضة وأدب النفس » ، وكتاب «الفرق بين الصدر والقلب » . . . ، وكتاب : « الصلاة ومقاصدها » . . . إلى غير ذلك من المؤلفات التى تركت آثاراً علمية ونتائج عملية هائلة ، وخاصة فيمن جاء بعده من الصوفية والعلماء . فقد استفاد من مؤلفاته أكابر العلماء أمثال : ابن عربى والغزالى ، والسهروردى البغدادى ، وابن القيم الجوزية . . . وغيرهم كثيرون . ومن أهم هذه المؤلفات :

١ — كتاب الصلاة ومقاصدها : وهو مطبوع فى القاهرة بالمؤتمر الإسلامى ١٩٦٥م .

٢ — ختم الأولياء : وهو مطبوع فى بيروت .

٣ — نوادر الأصول : وهو مطبوع فى استانبول .

٤ — كتاب الرياضة وأدب النفس : وهو مطبوع فى القاهرة ١٩٤٧ م .

٥ — كتاب الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب : وهو مطبوع فى القاهرة .

٦ — كتاب الفروق ومنع الترادف : وهو تحت الطبع فى القاهرة إن شاء الله .

٧ — كتاب الحج وأسراره : وهى هــذه الرسالة التى بين أيدينا اليوم .

٨ — كتاب تحصيل نظائر القرآن : مخطوط .

٩ — « : علل الشريعة أو العبودية : مخطوط .

١٠ — « : العقل والهوى : مخطوط .

١١ — منازل العباد من العبادة : مخطوط .

١٢ — عرس الموحدين : مخطوط .

١٣ — كتاب الرد على المعطلة : مخطوط .

١٤ — المسائل المكنونة : مخطوط .

إلى غير ذلك من الكتب الهامة فى المعرفة والتصوف والأخلاق والتربية ، ما زالت تحتل مكانة هامة فى دور الكتب ، ولدى الباحثين .

* * *

ثانياً :

رسالة : الحج وأسراره :

تتميز هذه الرسالة على سائر مصنفات الترمذى الحكيم : بدقة التأليف ، والتحليل العميق لمعانى الحج من بين سائر الفرائض الأخرى، وربما كان مرجع هذا إلى أنها من أواخر ما ألف ، فكانت ثمرة لثقافته وخلاصة لمذهبه ، وتطبيقاً لمنهجه ، وتقع فى سبعة أبواب : تبدأ بمقدمة عن البيت العتيق ونشأته . وكيفية رفع سيدنا إبراهيم عليه السلام لقواعده ، ثم يحاول بعد ذلك تفسير المناسك وشرحها مبيناً الفرق بينها وبين المشاعر والمشاهد ، وموضحاً من يفترض عليه الحج ، ولماذا سميت حجة الإسلام ، ويتناول الحديث عن الحجر الأسود وأهميته من بين المناسك ، ثم يتكلم عن الحج والعمرة والفرق بينهما وصفة كل منهما وحكمه . ثم يأخذ فى تحليل معانى الحج الدقيقة بما يثلج صدور العارفين ويشفى غلة المحبين ، محاولا بذلك تقسيم العباد إلى منازل ما بين عوام وخواص ، وخواص خواص ، بل وأشراف خواص ، فكل يشهد من المنافع بقدر مكانته ومنزلته عند الله ، ثم نراه يأخذ فى بيان ما يجب على الحاج فعله من أول بلوغه الميقات المكانى ، حتى ينتهى من أداء الفريضة : من الإحرام والتلبية والطواف ، والسعى ورمى الجمار والنحر والحلق . كل هذا مع إبراز كل دقيقة ورمزية تشير إلى معان عميقة لكل منسك من هذه المناسك . موضحاً ظاهر الفريضة وباطنها ، ويختتم الرسالة ببيان قصة جرهم مع الكعبة المشرفة ، وقصة حفر بئر زمزم .

وخلاصة القول أنه يرى أن فريضة الحج هى عماد الإسلام ، ومغزاها هو : تسليم النفس عبودة ورقاً ، وأن يحنف العبد إلى ربه لا يقصد غيره ، فيقف بتلك المشاعر عبودة منه وملقاً وتذللا واستكانة ، وتنفرد فريضة الحج بأنها طريق المعرفة إلى الله على طريق الرمز ، هيأها ليهتدى إليه فى الدنيا من لم يهتـــد إليه يوم الجباية والحظوظ .

فالحج هو ظهور أثر الربوبية والملك والقدرة فى الأرض حيث تأخذها العيون وتباشرها الأبدان ، وكان هذا الظهور من باب العطف والرأفة على عبيده . وأخيراً فإنى إذ أقدم هذه الرسالة عن فريضة الحج وأسراره ، أعتبر نفسى قد أسهمت فى إحياء أثر إسلامى هام ، يستفيد منه الباحث المدقق ، والدارس المتعمق ، والطالب المحقق ، كل فى مجال دراسته ، وهذه الرسالة تنشر لأول مرة ، وهى تقع ضمن مجموعة رسائل للحكيم الترمذى ، مصورة عن مخطوطة محفوظة بمكتبة باريس الأهلية تحت رقم ٥٠١٨ ، وتضم ثنتى عشرة رسالة وهى :

١ ــ كتاب الصلاة ومقاصدها .
٢ ــ « الحج وأسراره .
٣ ــ « الاحتياطات.
٤ ــ « الجمل اللازم معرفتها .
٥ ــ « الفروق ومنع الترادف .
٦ ــ « حقيقة الآدمية .
٧ ــ « عرس الموحدين .

٨ — كتاب الأعضاء والنفس .
٩ — « منازل العباد من العبادة .
١٠— « العقل والهوى .
١١— « الأمثال من الكتاب والسنة .
١٢— « المنهيات .

* * *

وهى تحمل رقم ٢١٨١٧ ب فى دار الكتب المصرية ، وهناك نسخة أخرى لهذه الرسائل منسوخة عن هذه المصورة ، ولكنها مليئة بالأخطاء الكثيرة ، مما جعلنى أعول على النسخة المصورة الأصلية رغم رداءة خطها وصغر حجم حروفها . وقد قمت بعمل أبواب وفصول لهذه الرسالة بما يكشف لنا عن محتويات الرسالة ويساعد على حصر مادتها ، وسرعة الاستفادة منها .

والله أسأل أن ينتفع بها قارئها ، وأن تكون خير عون لمن يريد أن يتعرف على أحكام فريضة الحج ومناسكها حتى يؤديها كما ينبغى ، حتى يكون حجه مبروراً ، ولا يكون له جزاء إلا الجنة .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا فى الإيمان ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، وآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، إنك سميع الدعاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢ رجب سنة ١٣٨٩ هـ
١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٩ م

حسنى نصر زيدان
كلية أصول الدين — جامعة الأزهر


الحج وأسراره



بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

البيت العتيق

كيف نشأ البيت العتيق ؟ :

قال الله تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ[1] مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)[2] .

قال أبو عبد الله : محمد بن على الترمذى — قدس الله روحه — :

حدثنا محمد بن حميد الرازى ، حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن حميد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال :

---

(١) جاء فى القرآن الكريم ذكر مكة وبكة ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل إن مكة الحرم كله ، وبكة المسجد خاصة ، أو مكة اسم البلد ، وبكة اسم للبيت الحرام ، وسميت بكة لازدحام الناس بها من قولك: بك الناس بعضهم بعضا أى : دفعوا بعضهم فى زحمة الطواف .

(٢) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

« وضع الله البناء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفى عام ، ثم دحيت[١] الأرض من تحت البناء » .

آدم والبيت العتيق :

حدثنى مسلمة بن شديد ، حدثنا إبراهيم بن الحكم ، حدثنا أبى ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب بن منبه[٢] ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « لما أهبط الله — عز وجل — آدم عليه السلام إلى الأرض ، رأى فيها سعة ، ولم ير فيها أحداً غيره ، قال : يارب ، أما لأرضك هذه عامر يسبحك ويقدس لك غيرى ؟ » قال : « سأجعل فيها من ذريتك من يسبح لى ويحمدنى ويقدس لى ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ، ويسبح فيها خلقى ، وسأبنى لك فيها بيتا : أخصه بكرامتى ، وأوثره على بيوت الأرض كلها ، أضعه فى البقعة التى اخترتها لنفسى ، فإنى اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض ، ومن قبل ذلك كان بعينى[٣] ، ولست أسكنه ، وليس ينبغى أن أسكن البيوت ، ولكن على كرسى البهاء والكبرياء والجبروت ، وليس ينبغى لأحد أن يعلم

---

(١) دحيت : أى بسطت .

(٢) تابعى جليل مشهور بمعرفة الكتب الماضية ، سمع ابن عباس وأبا هريرة ، وروى عنه : عمرو بن دينار وعوف الأعرابى وغيرهما . توفى سنة ١١٤ هـ .

(٣) أى تحت رعايتى وحفظى ، كما قال تعالى : (ولتصنع على عينى) .

علمى ، ولا يبلغ كنه شأنى ، أجعله يا آدم لك ولمن بعدك حرماً آمناً عن كل ملك جبار مهما خولته ، وبطن مكة جوارى دون خلقى ، فأنا الله ذو بكة ، عمارها وزوارها : وفدى وأضيافى ، أعمره بأهل السماء والأرض ، يأتونه شعثا غبراً ،

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)[١] .

فمن قصده لا يريد غيرى فقد زارنى وضافنى ، ووفد إلى فنزل بى ، وحق على أن أتحفه بكرامتى ، وفرض على الكريم أن يكرم ضيفه وأن يسعفه بحاجته . .

تعمره يا آدم ما دمت حيا ، ثم تعمره بعدك الأمم والقرون ، والأنبياء من ولدك : أمة بعد أمة ، ونبيا بعد نبى ، حتى ينتهى ذلك إلى نبى من ولدك هو خاتم الأنبياء[٢] ، فأجعله من عماره وولاته ، يكون أمينا عليه ما دام حيا ، فإذا انقلب إلى وجدنى قد ذخرت له أفضل المنازل ، أجعل اسمى فى ذلك البيت ، ويجدده نبى من ولدك ، يكون قبل هذا النبى ، وهو أبوه إبراهيم ، أرفع له قواعده ، وأقضى على يديه عمارته ، وأنيط[٣] له سقايته ، وأريه حرمه وحله ومواقفه ،

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الحج .

(٢) وهو نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

(٣) أى أعهد إليه ، من قولك : ناط الأمر لفلان أى عهد له به .

وأعلمه مناسكه وقرباته ومشاعره ، وأجعله أمة قانتا[1] وحده ، داعيا إلى سبيلي ، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم » .

رفع إبراهيم لقواعد البيت :

حدثنا أبي ، حدثنا يحيي الحمانى ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن ابن أبي ليلى ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« جاء جبريل — عليه السلام — إلى إبراهيم — عليه السلام — يوم التروية[2] ، فراح به إلى منى[3] ، فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة بمنى ، ثم غدا به إلى عرفات فنزل به حيث ينزل الناس ، حتى إذا زالت الشمس : صلى الظهر والعصر جميعاً ليس بينهما صلاة ، ثم أتى به إلى الموقف ، فوقف به ، حتى إذا كان كأسرع ما يصلى أحد من الناس المغرب أفاض به ، حتى أتى به المزدلفة[4] : فصلى به المغرب والعشاء جميعاً ليس بينهما صلاة ، وبات بها — يعنى المزدلفة — فلما طلع

---

(١) أى مطيعا لله خاضعا له ، مقرا بالعبودية ، معظما للربوبية .
(٢) وهو الثامن من ذى الحجة .
(٣) وهى داخلة فى حرم مكة ، وهى شعب ممدود بين جبلين ، وبينهما وبين مكة ثلاثة أميال . وسميت منى ، لما يمنى فيها من الدماء : أى تراق .
(٤) وتسمى أيضا « جمع » ، وسميت مزدلفة لازدلاف الناس إليها أى : اقترابهم ، أو لمجىء الناس إليها فى زلف الليل .

الفجر صلى به الفجر ، ثم أتى به الموقف ، فوقف به كأسرع ما يصلى أحد من الناس ، ثم أفاض به حتى أتى منى ، فرمى الجمرة ، وذبح ، وحلق ؛ ثم أتى به البيت ، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — فقال :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١) .

زاد فيه إسماعيل بن نصر ، عن يحي الحمائى ، فى حديثه بهذا الإسناد بتمامه قال : . . . ثم أراه البيت ، فطاف به سبعاً ، ثم رده إلى منى » .

أدلة الحج من الكتاب :

قال [أبو عبد الله] : ووجدنا الحج مذكوراً فى التنزيل ، فقال تعالى:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ . . . ﴾(٢) الآية .

ففرض الحج : هو التلبية والإحرام .

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

ثم قال:

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾[1] .

فبين شأن الموقفين .

ثم قال:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ . . . ﴾[2] .

فقال : « هي الدم ، والحلق ، ورمي الجمار ، والطواف الواجب ـ وزيارة البيت » .

ثم قال:

﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[3] .

فذاك : من الولد استعطاف ، وإنما دلهم على أن يذكروه كذكرهم الآباء ، ليعلم أن ذلك الطواف هو لوذان[4] العبد بربه ـ جل جلاله ـ .

---

(١) الآية ١٩٨ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٠٠ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ٢٠٠ من سورة البقرة .

(٤) أي اعتصامه به ، لأن الله هو الحصن والملجأ ، كما قال تعالى : (ألا ملجأ من الله إلا إليه) .

وقال :

﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾[1] .

(وهى) أيام منى . ، فهذا تمام الحج قد ذكره فى هذه الآية .
ثم قال فى آية أخرى :

﴿وَأَذِّنْ فى النّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[2] .

أى : ليشهدوا هذين الموقفين — عرفة والمشعر الحرام[3] — .
ثم قال:

﴿ فَلْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾[4] .

فقضاء التفث[5] : هو الرمى ، والحلق ، وأخــذ الأظفار ، وغسل الدرن .

---

(١) الآية ٢٠٣ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الحج .
(٣) المشعر الحرام : هو جبل معروف بالمزدلفة ، وسمى مشعرا : لما فيه من الشعائر التى هى معالم الدين وطاعة الله تعالى .
(٤) الآية ٢٩ من سورة الحج .
(٥) التفث : هو ترك الادهان والحلق ، حتى يعلوه الوسخ والغبار .

وليوفوا نذورهم : هو الذبح ؛ ثم قال :

﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[١] .

الملائكة والبيت العتيق :

قال أبو عبد الله : « وكانت الملائكة تحج البقعة التى كانت ربوة بيضاء ثم صارت أرضاً ، فاستوحش آدم ـ عليه السلام ـ حين أهبط ، فأكرمه الله ـ تعالى ـ بخيمة نزلت من السماء [كأنها] ياقوتة حمراء تلتهب ، لها بابان : شرقى وغربى ، فوضعت على مقدار الربوة التى تحولت أرضاً ، والركن نجم من نجومه ياقوتة بيضاء ، فلم يزل على ذلك، فطاف به ، حتى كان زمن نوح ـ عليه السلام ـ فرفع إلى السماء ، وهو البيت المعمور[٢] : يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يصلون فيه ، فلا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

ومكثت تلك الأرض خراباً ألفى سنة ، وكانت الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بين نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ تأتيه وتحج وليس هناك بناء ، إنما كانوا يطوفون بالبقعة ، حتى أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ برفع قواعده .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الحج .

(٢) حيث يقسم الله به فيقول : (والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور) .

كيف استدل إبراهيم على مكان البيت ؟ :

حدثنا عبد الجبار ، حدثنا سفيان ، عن بشر بن عاصم ، أنه سمع سعيد بن المسيب[1] يقول : حدثني علي - رضي الله عنه - : « أن إبراهيم - عليه السلام - أقبل من « أرمينية[2] » ومعه السكينة تدله على البيت ، فذلك قوله - عز وجل - :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ . . . ﴾[3] الآية .

فبوأ المكان لذكره أول مرة حتى استقر ، ثم بوأه للملائكة حتى استقر تسبيحه ، ثم بوأه لآدم — عليه السلام — حتى استقر بطوافه ، ثم بوأه لإبراهيم - عليه السلام - حتى استقر بحجه .

فكان في زمن آدم — عليه السلام — خيمة مضروبة عليه ، وفي زمن إبراهيم — عليه السلام — رفع القواعد من خمسة أجبل[4] ،

---

(١) هو الإمام الجليل سعيد بن المسيب ، تابعي ، ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، روى عن عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر ، وكان فقيها جليلا. توفي سنة ٩٣ هـ .

(٢) صقع واسع كان بين بحر الخزر ووادي الفرات ، وقد أصبح اليوم مقسما ما بين تركيا وإيران والاتحاد السوفيتي .

(٣) من الآية ٢٦ من سورة الحج .

(٤) جمع جبل .

وأتى بالحجر ، وكان مستودعا فى « أبى قبيس[١] » منذ زمن الغرق ، فوضعه فى الركن ، فلما فرغ قيل له :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً . . . . ﴾[٢] الآية

فقال يارب : أين يبلغ ندائى ؟ قال : أذن [إنما] عليك النداء ، وعلينا البلاغ ، فبلغنا أنه قام على الحجر الذى يقال له « المقام[٣] » ، فوضعت له الجبال ، ورفعت له الأرض ، وتطاول الحجر ، فنادى : فقال : يأيها الناس استجيبوا لربكم ، إن ربكم — تعالى — اتخذ بيتا وأمركم أن تحجوه ؛ فلم يبق أكمة[٤] ولا شجر ، ولا رطب ولا يابس ، ولا جن ولا إنس ، إلا قال : لبيك اللهم لبيك . . . . إلى آخره ، ووقر فى قلب كل مؤمن .

فوضع البيت من العرش إلى تخوم الأرض السابعة بحذاه .

---

(١) هو جبل معروف بمكة المكرمة ، وهو مشرف على الصفا ، وكان يسمى فى الجاهلية بالأمين : لأن الحجر الأسود كان مستودعا فيه عام الطوفان ، وقيل إنه أول جبل وضعه الله تعالى على الارض حين مادت .

(٢) من الآية ٢٧ من سورة الحج .

(٣) هو مقام إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وقيل إنه هو والحجر الأسود كلاهما من الجنة ، ومكانه فى المسجد الحرام .

(٤) الأكمة : هى التل المرتفع ، يقال : استأكم الموضع أى ارتفع وصار كالأكمة .

اختلاف معنى الحج عن سائر الفرائض :

قال أبو عبد الله : ومعنى الحج غير معنى سائر الفرائض ، ألا ترى أنه قال :

(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[١] .

فذكر بعقبه الكفر ، ولم يذكر فى سائر الفرائض ذلك ، ليعلم أن معنى الحج غير معنى سائر الفرائض .

وذلك أن الصلوات الخمس : وضعت لتكفير السيئات ، فقال تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ[٢]) الآية .

وقال [فى شأن الزكاة] :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ... ﴾[٣] الآية .

والصوم : تطهير البدن ، وكف عن الشهوات بذلك .

ومعنى الحج أن ربنا تبارك اسمه ـ كان ولا شىء معه ، فخلق عرشه

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١١٤ من سورة هود عليه السلام .

(٣) من الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

وسماءه وأرضه ، ودار ثوابه وعقابه ؛ وخلق عباده ، فظهر لهم على العرش : ظهور الربوبية والملك والقدرة ، وبطن أن يدركوه : كيفية وتشبيها ، فهو الظاهر والباطن ، فهذا الظهور : وقع على قلوب الموحدين شيء منه ، وعجز عنه الباقون ؛ فهيأ لهم أثر هذه الربوبية والملك والقدرة فى الأرض من حيث تأخذه العيون ، وتباشره الأبدان ؛ ظهر بجلاله وعظمته وكبريائه على العرش ـ إذ كان أعلى خلقه ـ : ظهور الربوبية ؛ وأظهر فى أرضه آثار ذلك : ظهور العطف والرأفة على عبيده ، فى موضع من الأرض معلوم مكشوف ، كى يلوذ به العبيد ، لتنطفىء حرقات شوقهم ، ويعوذ سائر العبيد به من أليم عقابه ، وخوف سطواته ، ويسألون المغفرة لذنوبهم .

وظهور الله ـ جل ثناؤه ـ على هذين الخلقين ، رحمة منه للخلق ، إذ هو ـ جل ثناؤه ـ لا يتصور فى الأوهام ، ولا يحيط به مكان ، تعالى عن المكان ، فهو على ما كان ، سبحانه هو الله الواحد القهار ، فكأنه يقول ـ جل اسمه ـ : فكما أن لى عليكم أن تؤمنوا بى : واحداً ظاهراً على العرش بجلالى وعظمتى ، باطنا عن أن يدرك أحد كيفيتى أو كيفية عظمتى وربوبيتى ؛ فكذلك لى على من استطاع سبيلا إلى الموطن الذى أظهرته فى أثر ربوبيتى ، وجعلته آيتى ومعلمى : أن يصير إليه ، فيقف هناك طالبا للعفو والغفران ، ليفوز بقصده إلى آثار معلمى : قلبا وبدنا ، لأن العبودية على القلب والبدن ، ثم قال : (ومن كفر) عن الذى أبرزت وأظهرت فى أرضى (فإن الله غنى عن العالمين) .

ثم ذكر شأن من يعظمه فقال عز من قائل :

﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ... ﴾[١] الآية .

فإذا كان فى القلب إيمان : كان تقوى ، وإذا كان تقوى : فهم أمر هذه الشعائر فعظمها .

وروى عن عبد الله بن الزبير[٢]، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :

« إِنَّمَا سَمَّى اللهُ تَعَالَى البَيْتَ العَتِيقَ ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ ؛ فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ » .

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الحج .

(٢) هو الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام ، أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وأبوه الزبير أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وجدته صفية بنت عبد المطلب ، عمة الرسول وعمة أبيه خديجة أم المؤمنين ، وخالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم . حاصره الحجاج بن يوسف بمكة وقتله فى السابع عشر جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ .

الباب الثانى

تفسير المناسك

معنى المناسك :

قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ[1] ﴾ . . .

قال أبو عبد الله ـ رحمه الله ـ :

إنما سمى محمد بن الحسن[2] ـ رحمه الله ـ « كتاب الحج » : « كتاب المناسك » لأن هذا الاسم أعم من اسم الحج ، لأن المناسك تعم جميع أفعال الحج والعمرة وسائر العبادات من جهة اللغة والشريعة .

فالمناسك واحدها « منسك » وهو مشتق من « المسكن » ، فقدموا النون مرة وأخروها مرة ، فما كان بالجوارح فهو « منسك » ، وهو الموضع الذى يطمئن القلب ويسكن إليه .

---

(١) من الآية ٢٠٠ من سورة البقرة .

(٢) هو صاحب أبى حنيفة ، وهو الإمام أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى ، ولاه الرشيد القضاء ، وخرج معه فى سفره إلى خراسان فمات بالرى ودفن بها . ولد سنة ١٣٢ هـ وتوفى سنة ١٨٩ هـ

ألا ترى أنه يقال للرجل الذى يهدأ من الطيش ويتقرأ « هذا رجل ناسك » ، لأنه قد نسك بقلبه ، وسكن بجوارحه ، فاطمأن قلبه وسكن، فقيل لهذه المواضع « مناسك » ، وقيل « مشاعر » ، وقيل « مشاهد » .

الفرق بين المنسك والمشعر والمشهد :

وإنما قيل : « مناسك » لطمأنينته بقلبه إلى ربه تعالى .

وقيل : « مشعر » : لشعور القلب به تعالى .

وقيل : « مشهد » : لأن الله تعالى شاهد بالإقبال عليه ، ولأنه شهد منافعه فى هذه المواضع .

ومثل هذا كما قيل : « تاب الرجل » ، فهذا فى القلب ، ثم قيل : «بات» أى بات بالنفس .

وكما قيل : « شكر » أى أبصر صنع الله تعالى بالقلب ، ثم قيل : « كشر » ، أى أظهر الأسنان .

وكما قيل : « أطاع وأعطى » ، أحدهما فى بذل المال ، والآخر فى البدن .

وكما قيل : « ندم » ، أى بات على الطاعة ورجع عن المعصية ، ثم قيل « مدن » : أى أقام بالمدينة . ومن هذا كثير فى اللغة .

ثم الذى يدل على صحة ما ذكرنا : من المناسك ، والمشاعر ، والمشاهد ، ما رواه أبو مطيع عن الحسن بن عمارة ، عن الحسن ، عن

طاووس[1] ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :

﴿ لَوْ يَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ بِمَنْ حَلّوا ، لَاسْتَبْشَرُوا بِالْفَضْلِ مِنْ رَبِّهِمْ تَعَالَى بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

فالرواية «حلوا» وليس بتصحيف حتى يتوهم أنه بالخاء ، إنما المراد : كل واقف هناك بجباله قد حل بربه تعالى ، لأنه مشعر ، كذا وضع الله ذلك المكان لانتباه النفس من سكرتها ، وشعور قلبه بربه تعالى ، ومما يحقق ذلك : ما أخبر عن الله تعالى أنه قال : « وفدى وأضيافى وزوارى ونزالى » .

فأول مشعر العبد : إحرامه وتلبيته ، وهو أول مشهده ، وهو أول منسكه .

والثانى : وقوفه بعرفة ـ متعرضا ـ لينجزه الله وعده .

والثالث : وقوفه بالمزدلفة ، مزدلفا إليه .

والرابع : وتوقفه بجمع الجمر ، وهو المحبس الذى يعرض له عليه عدوه .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن طاووس اليمانى ، وهو من كبار التابعين والعلماء الفضلاء ، سمع ابن عباس وابن عمر وغيرها ، توفى بمكة سنة ١٠٦ هـ .

والخامس : نحره وقربانه حين ينتهى إلى البيت ، إلى أصل الأمر الذى دعا الله تعالى إليه فقال فى تنزيله :

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)[١] .

ما يشهده الحجاج من المنافع :

فهذه المشاهد والمشاعر والمناسك : كلها منافع لهم فى الدنيا والآخرة براءة من الذنوب ، وخلاص من التبعات ، ونجاة من النار ، وفوز بالجنة :

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)[٢] .

أى محل هذا الإحرام : مظهر رب العالمين ومعلمه . فللعبد فى كل مشهد منسك : أى طمأنينة بقلبه ، [ومشعر] : أى شعور بقلبه ، ثم أفاضه من مشعر إلى مشعر آخر : فقيل أفاضه ، لأنه يفيض بقلبه مسرعا ، ولم يقل : « ينصرف وينقلب » ؛ فلا يزال يفيض من مشرع إلى مشرع ومن مشهد إلى مشهد ، حتى يكون محل هذه المعاهد والمشاعر إلى البيت العتيق ، الذى هو أصل الأمر الذى دعى إليه .

أسماء المناسك مشتقة من فعلها :

١ — والإحرام مشتق من فعله : وذلك أنه عطل جوارحه من

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الحج .

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الحج .

اللباس ، والطيب ، والنساء ؛ وكذلك فى الصلاة يحرم لها : أى يعطل جوارحه عن كل شهوة .

٢ — وعرفه مشتق من فعله : وذلك أنه تعرف إلى ربه لينجزه وعده ، ويغفر له ما سلف .

٣ — وسميت « مزدلفة » : لأنه يزدلف إليه .

٤ — والمشعر الحرام : لشعور القلب بربه تعالى .

٥ — وجمع : لأن الله تعالى جعل للعبد هناك أمرين هما بغية العبد :

(ا) مغفرة الذنوب .

(ب) والخلاص من تبعات العباد .

فجمع له هناك الأمرين ، وقد رويت الآثار فيما ذكرنا :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَغْفَرَ لِذُنُوبِهِمْ بِعَرَفَةَ فَغُفِرَتْ، وَدَعَا لِأُمَّتِهِ بِجُمْعٍ أَنْ يُخَلِّصَهُمْ مِنَ التَّبِعَاتِ فَأُجِيبَ لَهُ » .

٦ — ومنى مشتق من فعله : لأن العبد أصاب منيته من حط الأوزار والذنوب ، وأذن له فى أعظم المنية ، وهى المصير الى محل قربه ، والدنو إلى معلمه .

٧ — وجمرة العقبة لإبراهيم — خليل الله تعالى — : حيث عرض له العدو فحبسه ، والتجمير هو « الحبس » ، ومنه قول عمر — رضى الله عنه — لأمراء الأجناد : « لا تجمروهم فتفتنوهم » ، أى لاتحبسوهم عن النساء ، ومنه سمى المجمر « مجمراً » لأنه يحبس النار عن أن تحرق الثوب

فإذا فعل ذلك فقد أدى ما وجب عليه وما دعى له ، فقيل : « ليلة عرفة » وإنما هى « ليلة النحر » ، لما حدثنا أبو مطيع ، عن عباد بن كثير ، عن محمد بن المنكدر ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — :

« كُلُّ يَوْمٍ لَيْلَتُهُ قَبْلَهُ ، غَيْرَ يَوْمِ عَرَفَةَ ، فَإِنَّ لَيْلَتَهُ بَعْدَهُ » .

فإذا قضى المناسك كلها إلا الطواف ، فقد حل كل شىء إلا النساء .

لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِذَا رَمَيْتُمْ الجَمْرَ ، وَحَلَقْتُمْ ، فَقَدْ حَلَّ كُلُّ شَىْءٍ إِلاَّ النِّسَاء » .

وإنما بقى أمر النساء : لأنه ليس للعبد أن يستعجل قضاء نهماته ، ولم ينته الأمر منتهاه ، ولم يكفه عن معلمه ، وقد بقى معظم الأمر .

وإنما حل له الطيب ، واللباس ، ورمى الدرن : لأن فيه أخذ الزينة للمقام والقرب .

وروى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى شأن الطيب أحاديث ، وإنما نهى عمر — رضى الله عنه — الناس عن الطيب : لأنه رأى الطيب داعياً إلى النساء ، مهيجا إلى الشهوة ، فخاف أن يتهافت الناس فيه .

٨ — والهدى مشتق من فعله : والهداية من الله تعالى إمالة القلب إليه ، والهدية من العبد إنما سميت هدية لأنها تستميل من أهدى اليه ، فهذه الأشياء مردودة الى الأصول التى ذكرنا .

فأما ماجاءت به الأخبار : من أن « عرفة » إنما سميت « عرفة » لأن إبراهيم — عليه السلام — لما رأى المكان قال : عرفت

وجمع : لأنه اجتمع بها آدم وحواء — عليهما السلام — .

ومنى : لأن آدم — عليه السلام — تمنى فيها الجنة .

فهذه الأسماء قد كانت ، ولكنها فروع قد تلقتها الألسنة ، فجعلت سبب الأسماء ، فأما الأصول فهو الذى ذكرنا ، وقد كانت هـذه الأسماء بعد ذلك ، فمن الذى قصر علمه عما ذكرنا : أن هـذه الأسماء لهذا ، فإن كان كما ظن ، فما كان الاسم قبل ذلك ؟؟ ، وقد علم آدم الأسماء كلها من قبل ذريته وسكناه الأرض ؟ ؟

أهمية الوقوف بعرفة :

وعرفة : موضع الاستئذان ليؤذن له فى دخول حرمه ، وطوافه ببيته ، وهو أساس الحج وعليه مدار الأمر ، فإذا لم يقف فى موضع الإذن فاته وقت الإذن ، فلم يدركه إلى عام قابل ، فإن وقف بعرفة فأذن له فى الازدلاف ، ثم المصير إلى البيت ، فهو أبدا على ذلك الإذن الذى أذن له ، ولم يأت الأمر الذى دعى إليه ، فإن أتاه بعد ذلك فعليه دم لتأخيره ، ولا يبطل إذنه بتأخيره ، وإن طالت المدة ، حتى يأتى ويطوف

حدثنى قتيبة بن سعيد ، عن مالك بن أنس(١) ، عن عبد الرحمن بن القاسم(٢) ، عن أبيه ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت :

« طيبت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لإحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف » .

---

(١) هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك المدنى ، إمام دار الهجرة وأحد أئمة المذاهب المتبوعة (الأربعة) ، وهو من تابع التابعين ، ولد سنة ٩٣هـ ، وتوفى صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ . ودفن بالبقيع .

(٢) هو عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ، توفى سنة ١٢٦ هـ . وكان قد ولد فى حياة السيدة عائشة أم المؤمنين .

الباب الثالث

من يفترض عليه الحج

وإنما يفترض الحج على من كان مسلما ، عاقلا ، حراً ، بالغا ، واجداً للزاد والراحلة . فإذا اجتمعت هذه الخصال افترض الحج .

حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا منصور بن وردان الأسدى ، عن على بن عبد الأعلى ، عن أبيه ، عن أبى البخترى ، عن على — رضى الله عنه — قال :

لما نزلت هذه الآية :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)[1] .

قالوا : يارسول الله ، أفى كل عام هذا ؟ ، قال : « لا ، ولو قلت نعم لوجبت » فأنزل الله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)[2] .

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١٠١ من سورة المائدة .

حدثنى صالح بن محمد ، حدثنا قيس العمرى ، عن حرام بن عثمان ، عن ابنى جابر ، عن أسماء قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ حَجَّ الصَّغِيرُ عَشْرَ حِجَجٍ لَكَانَتْ عَلَيْهِ حَجَّةٌ إِذَا بَلَغَ ، إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » .

وكذلك لو حج المملوك ، لكانت عليه حجة إذا أعتق إن استطاع إليه سبيلا .

حدثنا محمد بن مقاتل ، حدثنا إسحق بن سليمان ، عن ابراهيم بن يزيد المكى ، عن محمد بن عباد بن جعفر ، عن ابن عمر قال :

« قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا أَفْضَلُ الْحَجِّ ؟ قَالَ : العَجُّ[1] وَالثَّجُّ[2] قِيلَ : فَمَا السَّبِيلُ ؟ قَالَ : الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » .

أما الكافر : فإنما لم يفترض عليه الحج ، لأن البيت مظهر ربوبية الرب تبارك وتعالى ومعلمه ، وأما الصبى : فلأنه يفتقر إلى النية ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ . . . » الحديث .

---

(١) يقال : عج عجا وعجة ، أى رفع صوته وصاح ، ويقال عج إلى الله بالدعاء ، وعج بالتلبية فى الحج .

(٢) والثج : هو سيلان دم الهدى ، لأن الثج فى اللغة هو السيلان والانصباب ، قال الله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) .

ولا عمل لمن لانية له ، وحجته تطوع ، وكذلك إذا صلى عند الإدراك ثم أدرك ، لزمه الاعادة ، وصلاته قبل الإدراك تطوع ، وكذلك إذا صلى قبل الأذان ، وكذلك الذى لاعقل له .

وأماالعبد : فإنه مسلوب القدرة عن الملك والزاد والراحلة ، ألاترى أنه لو أطعم فى كفارة عليه . لم يجز لأنه أطعم ما لا يملكه .

وأما الزاد : فإنه قوام البدن ، لامندوحة عنه إلا به ؛ والراحلة نحو من ذلك ، إذا كانت الراحلة لعجز الأبدان وضعف القوى ، وأما الزاد الأكبر فهو « التقوى » ، قال عز ذكره :

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)[1] .

فالتقوى : زاد عرصات[2] القيامة ، فلا يعجز ولا يقصر عن زاد البادية ، والراحلة الكبرى ظهور القدرة .

فطوبى لمن أدى هذا الفرض : بهذا الزاد ، وهذه الراحلة .

والوجه الآخر : أن يكون صحيح البدن ، يقوى على المشى فيقطع تلك المسافة ، وإن طالت المدة يتعيش من فضل الله ، كما يتعيش فى وطنه ،

---

(١) من الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٢) العرصات جمع عرصة : والعرصة : هى كل بقعة واسعة بين الدور لابناء فيها ، والمقصود هنا من العرصات هى ساحات العرض للحساب والسؤال يوم الحشر حيث (توفى كل نفس بما كسبت) .

ويتوجه لمطالب الكسب » وروى ذلك عن الضحاك بن مزاحم ، وعكرمة[1] ، فلو لم تأتنا الأخبار فى بيان الاستطاعة عن المصطفى — صلى الله عليه وسلم — لكان معنى الاستطاعة يتجه إلى وجوه :

منها : ما قاله — عكرمة والضحاك — لكننا تركنا لقول المصطفى — صلى الله عليه وسلم — قولهما ، وقد ذهبا مذهباً يجرهما إلى العلم الظاهر ، فقصرا ولم يلتفتا إلى الباطن من العلم ، والعلم الظاهر هو : « الصدق » ، والعلم الباطن هو : « التدبير » الذى عليه أس الأمور كلها ، ظهر بدؤه من المنة ، والصدق فرع ، والمنة أصل ، ابتدأ المنة حيث خلق تربتهم التى منها خلقوا ، ثم خلقهم فمن عليهم بخلقهم ، ثم هداهم فمن عليهم بالهدى ، ثم أفيض الصدق منهم .

فلو التفت الضحاك إلى باطن الدنيا : لعلم أن الدنيا أسست على العسر والكد ، والدين أسس على اليسر والرفق والعطف ؛ لأن الدنيا أصلها عقوبة ، ثم كان الدين غوثاً ورحمة . عوقب أبونا آدم عليه السلام بالدنيا ، وجعلت له سجناً ، وللموحدين من ولده ، وأغيث بالدين ، فابتنى على اليسر والرفق . ألا ترى إلى قوله تعالى :

(يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)[2] .

---

(١) هو أبو عبد الله عكرمة : مولى ابن عباس ، هاشم مدنى ، أصله بربرى من أهل المغرب ، وهو من كبار التابعين ، روى له البخارى ، توفى سنة ١٠٤ هـ .

(٢) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

ذكر هذا فى شأن الصوم فى السفر ، ثم قال فى ذكر التيمم:

(مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ)[1] .

فلما وجدنا ذلك من تدبير ربنا تعالى فينا ، فى شأن الدين والدنيا ، احتملنا العسر فى أبداننا ، والكد والنصب فى شأن دنيانا ومعاشنا ، لأنها هكذا وضعت ، وعلى هذا أسست ، لأنها سجن المؤمن ، وحمدنا ربنا تعالى على حسن صنيعه بنا وقبلنا ، فنلنا اليسر والرفق من ربنا جل وعز فى أمر ديننا ، وشكرنا وآثرنا ما آثر لنا ربنا جل وعلا ، وأراده لنا .

حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا عبدة ، عن هشام بن عروة[2] ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَنَّهُ مَا خُيِّرَ بَينَ أَمْرَيْنِ إلاّ اخْتَارَ أَيسَرَهُما » .

وقال : « إنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّراً » .

---

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة .

(٢) هو أبو المنذر : هشام بن عروة بن الزبير بن العوام ، أحد الفقهاء الأجلاء ، تابعى مشهور . توفى ببغداد ودفن بمقبرة الخيزران سنة ١٤٦ هـ ، وكان قد ولد عام قتل الحسين سنة ٦١ هـ .

وقال لمعاذ[1] وأبي موسى[2] ، رضى الله عنهما ، حين بعثهما :

« تَيَاسَرَا وَتَطَاوَعَا » .

وقال : « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا » .

إنما هى استطاعتان : استطاعة فى يسر ، واستطاعة فى عسر ، وإنه ليس كما ذهب إليه الضحاك .

فاستطاعة فى يسر : الزاد والراحلة .

واستطاعة فى عسر وتعب : من الرحلة والعناء ، وضيق النفقة .

فدل ما ذكر الله تعالى فى شأن الفرائض أن هذه استطاعة فى يسر لا استطاعة فى عسر .

حدثنى بندار ، حدثنى محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن أبى جمرة الضبعى قال : سألت ابن عباس عن الصوم فى السفر ، فقال : « يسر وعسر ، فخذ يسر الله عز وجل » .

وكذلك روى أن عمر ، رضى الله عنه ، افتقد عبد الله بن أرقم فى صلاة الغداة يوماً ، فأتى إليه بعض الصحابة ، فقال : « يا عبد الله بن

---

(١) هو معاذ بن جبل الصحابى المشهور ، توفى فى طاعون عمواس بالشام سنة ١٨ هـ . وتقع عمواس هذه بفلسطين بالقرب من بيت المقدس .

(٢) هو أبو موسى الأشعرى ، الصحابى الكوفى ، هاجر ثلاث هجرات : من اليمن إلى رسول الله بمكة ، ومن مكة إلى الحبشة ، ومن الحبشة إلى المدنية . توفى بمكة سنة ٥٠ هـ .

أرقم » . فخرج إليه وبه تجلد ، فقال : أجبت داعى عمر ولم تجب داعى الله ! ! ، قال : « وجدت الله أعذر لى من عمر » . قال : صدقت . ألا ترى أنه لما امتحنه عمر ، رضى الله عنه ، فوجده عارفا بالأمر صدقه وعذره .

فأمر الدنيا والمعاش تطالبك به العباد ، فالأمر فيه أضيق . وأمر الدين يطالبك به الكريم العطوف ، فالأمر فيه أيسر وأسهل . ولهذا قال أبو حنيفة[1] وأبو يوسف رحمهما الله : أنه إذا وجب الحج يجب وجوباً موسعاً ، لأن أصل وجوبه على اليسر .

والذى يدل على صحة هذا : ما روى أنه افتتحت مكة فلم يحج النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة الأولى ، وإنما حج عتاب بن أسيد[2] وفى السنة الثانية أبو بكر رضى الله عنه . وفى السنة العاشرة حج النبى صلى الله عليه وسلم ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يحج إلى آخر السنة ، فثبت أنه يجب وجوباً موسعاً ، ولأن مدة العمر للمؤمن وقت

---

(١) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، أحد أئمة المذاهب المتبوعة الأربعة ، ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ . وكان إمام أصحاب الرأى وفقيه أهل العراق . ومن أشهر أصحابه : أبو يوسف ومحمد ، عرض عليه تولى القضاء فأبى وامتنع فضرب بالسوط حتى أخلى سبيله .

(٢) هو عتاب بن أسيد الصحابى ، أسلم يوم الفتح واستعمله النبى صلى الله عليه وسلم على مكة حين انصرف عنها بعد الفتح ، توفى فى يوم وفاة أبى بكر الصديق سنة ١٣ هـ . وكان عتاب خيراً صالحا فاضلا .

الحج . فهو موسع عليه كأوقات الصلاة فى أول الوقت أو آخره ؛ وكذلك أول العمر أو آخره .

وأما محمد — صاحب أبى حنيفة — فقد احتج بأن النبى صلى الله عليه وسلم حج قبل الهجرة مرتين ؛ فأدى الفرض . وإنما أخر الحج إلى السنة العاشرة لأنه علم بطريق الوحى أنه لا يخرج من الدنيا ما لم يحج .

وروى عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أنه كتب إلى أقوام : « ليحج موسركم وإلا ضربت عليكم الجزية » لأنه إذا بلغ وعقل يلزمه الإيمان بربه لزوماً مضيقاً . وكذلك إذا وجد السعة واستطاع إلى الحج سبيلا . إذ هو : إتيان معلمه . وتجديد عهده ؛ وفى الخبر :

« بُنِيَ الإسلاَمُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةُ أَنْ لا إِلٰهَ إلاّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، و إِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْم رَمَضَانَ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ » .

فيلزمه لزوماً مضيقاً ، كما يلزمه سائر الفرائض .

وروى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه قال : « من ملك ثلاثمائة درهم . وجب عليه الحج . وحرم عليه نكاح . إلا ما يرى أن

ثلاثمائة درهم مقداره من المدينة[١] إلى البصرة[٢] . وإنما ينظر إلى مقدار الكفاية » .

وكان ابن عباس — رضى الله عنهما — بالمدينة — آنذاك — وكان بالبصرة أميراً ، فحقيق أن يكون قال هذا بالبصرة ، لأنه من المدينة كثير وفى قول ابن عباس — رضى الله عنهما — أن الاعتبار باستطاعة اليسر ، لا باستطاعة العسر ؛ ولو تكلف الانسان فحج بالعسر أسقط الفرض عن نفسه كمريض فى شهر رمضان ، أو مسافر : تكلفا العسر فصاما ، أسقطا الفرض عن أنفسهما .

---

(١) وهى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسمى بالمدينة ، وطيبة ، وطابة ، والدار ، ويثرب ، وهى التى هاجر إليها الرسول من مكة واستقر بها حتى وفاته وبها المسجد النبوى الذى يضم رفات المصطفى وصاحبيه رضى الله عنهم

(٢) بناها « عتبة بن غزوان » فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما سنة ١٧ هـ ، قيل : لم يعبد بها صنم قط ، وهى الآن إحدى العواصم الكبيرة فى الجمهورية العراقية .

الباب الرابع

تفسير حجة الإسلام

سبب تسميتها حجة الإسلام :

إنما قيل « حجة الاسلام » ولم يقل أحد من الأئمة « صلاة الاسلام » ، ولا « صوم الاسلام » ، ولا « زكاة الاسلام » ، لأن الله — تبارك اسمه — قال لابراهيم — صلوات الله وسلامه عليه — (أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ)[1] .

فرمى فى النار فثبت ولم يزل ، ثم قيل له : ابن لى بيتا ، فلم يهتد إلى مكانه ، فبوأ له مكان البيت .

بناء إبراهيم — عليه السلام — للكعبة :

روى عن على — رضى الله عنه — أنه قال : « لما أقبل الخليل — صلوات الله وسلامه عليه — من أرمينية ومعه السكينة (لتدله على مكان البيت ، بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت[2]) دلت إبراهيم —

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة البقر .

(٢) يوجد فى الأصل مكان مابين القوسين العبارة الآية [حية لها جناحان وراس ، فى جوفها ريح هفافة] . ولكن آثرنا وضع هذه الجملة مكانها لأنها أليق .

عليه السلام — على مكان البيت(١) .

وقال السدى : « كان على موضع البيت تل من التراب ، فأخذا المعاول ، وجعلا يقطعان ذلك التراب عن موضع الكعبة ، فأرسل الله عز ذكره — ريحا ، فكنست حتى ظهر للخليل — صلوات الله وسلامه عليه — مكان البيت ؛ دليله قوله تعالى :

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ)(٢) .

يعنى الريح التى أرسلها ، فأذهبت التراب ، وأظهرت للخليل — صلوات الله عليه — وجه الأرض ؛ ثم ظهرت لحية وفيها رأس يتكلم فقالت له : اجعل قواعد البيت على تربيعى ، فبنى البيت ، ثم قيل : حج البيت ، وأذن فى الناس بالحج ، قال : نادهم ألا إن ربكم اتخذ بيتا فأجيبوه قال : يارب أين أنادى ؟ ؟ ، فقيل له : قف على المقام ، وألهم الله تعالى

(١) وقد ذكر أبو السعود فى تفسيره : أن موضع البيت كان خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها عليه السلام حتى أتيا مكة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار إبراهيم فى ظلها إلى أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودى أن ابن على ظلها ولا تزد ولاتنقص ، وقيل أعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الحجوج كنست ما حوله فبناه على أساسه القديم . انظر تفسير أبى السعود : جـ ١ : ص ١٢٤ ، جـ ٤ : ص ١١ ، وكذلك تفسير النسفى جـ ٣ : ص ٩٨ .

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الحج .

الحجر فامتد حتى صار أطول من «جبل أبي قبيس» سبعين ذراعا بذراع الملائكة ، فنادى ، وأرى فى المنام أن اذبح ولدك ، فلما قضى حجته ربط ولده ، وجر بالسكين على أوداجه ، ففدى بذبح عظيم ، رأى أن ذلك النداء : هو ذلك القربان المقبول :

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾[1].

كان فى خزائن الرحمة إلى زمن إبراهيم — عليه السلام — ففدى به ولده ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾[2] .

فحقق الله إسلامه الذى قال :

﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

فكان هذا الذبح فى حجته ، فمن علينا ربنا بملة إبراهيم عليه السلام ، فقال :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ . . . ﴾[4] .

---

(١) من الآية ٢٧ ، من سورة المائدة ، وذلك فى قصة ابنى آدم : هابيل وقابيل ، حيث تقبل الله من أحدهما قربانه ولم يتقبل من الآخر .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الصافات .

(٣) من الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٤) من الآية ١٢٥ من سورة النساء .

فسمى لهذا « حجة الاسلام » ، لأنه ظهر صدق إسلامه ، وتسليم نفسه : عبودة ورقا ، وقوله : « حنيفاً » ، قال أهل التفسير : « حاجا » وأصله من أنه يحنف إلى ربه تعالى تعبدا ورقا ، فيقف لتلك المشاعر : عبودة منه ؛ ومنه قول أنس بن مالك — رضى الله عنه — فى تلبيته :

حدثنا يحي ، عن هشام ، عن حفصة بنت سيرين ، عن أخ لها ، عن أنس بن مالك : أنه لبى فقال « لبيك بحج حقا تعبداً ورقا » .

فالحجة من العبد إظهار الرق لمولاه ، فهو فى كل مشعر يتشبه بالرقيق فقيل : « حجة الإسلام » ، لأنه فعلها مرة فا كتفى ، لأنه سلم نفسه ، وتسليم المبيع مرة يكفى .

الحجر الأسود وأهميته :

وفى تقبيله الحجر الأسود : تجديد إسلامه الذى كان منه يوم الميثاق[1] ، ألا ترى إلى عمر — رضى الله عنه — أنه لما استلم الحجر فقبله ثم قال : « والله إنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقبلك ما قبلتك ، فقال على — رضى الله عنه — : « يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع » قال : « من

---

(١) وذلك حيث أخذ الله الميثاق على آدم وذريته فى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) فهذا هو الميثاق الذى أخذه الله على بنى آدم وهو إقرارهم بالعبودية من أنفسهم ، وبالربوبية لله رب العالمين .

أين تقول ؟ قال : « أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[١] ... ﴾ الآية :

لما خلق الله آدم — عليه السلام — استخرج ذريته من ظهره كهيئة الذر ، من يوم خلقهم إلى يوم بعثهم ، قال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ﴾[٢] .

وكان هذا الحجر — ذلك اليوم — فى الجنة ، وكان له فم ولسان وعينان ، فكتب ذلك فى رق أبيض ، وأشهد عليهم الملائكة بإقرارهم بالربوبية ، وألقمه هذا الحجر ، واستودعه هذا الموضع ، وقال له : « اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة » .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : « جمعهم جميعاً فأسمعهم ثم ردهم إلى الأصلاب والأرحام ، بعد ما أعطاهم العقل ، فعقلوا منه المخاطبة وفهموه ، وذلك على الله يسير » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .
(٢) نفس الآية السابقة .

« يُؤْتَى بِالْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمَا لِسَانَانِ يُسَبِّحَانِ ، وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ ، يَشْهَدَانِ لِمَنْ اسْتَلَمَهُمَا ، أَوْ صَلَّى بِقُرْبِهِمَا » .

فسمى « حجة الإسلام » : لأنه جدد التسليم .

قال : وأرسل الخليل — صلوات الله عليه — إسماعيل — عليه السلام — يطلب حجراً يجعله على موضع الركن الذي فيه الحجر الأسود وكان جبل « أبي قبيس » من جبال خراسان[1] ، فقال : يارب أئذن لى أن أسلم الوديعة إلى خليلك ، فأذن الله تعالى له ، فسار إلى مكة ، وقال : يا خليل الله إن لك عندى وديعة ، وهى حجر استودعنيه جدك نوح عليه السلام — أوان الغرق . فقال الخليل — عليه السلام — هاتها ، فسلم الحجر الأسود إليه ، فوضعه إبراهيم — عليه السلام — فى هذا الموضع ، فاستوى عليه ، ومازاد وما نقص ، وقال « أبو قبيس » : يا خليل الله سل ربك ألا يعيدنى إلى خراسان ، ويجعل مكانى بمكة ؛ فسأل الخليل عليه السلام ربه ذلك ، فأذن له . وجاء إسماعيل عليه السلام وهو يحمل حجرا بعد جهد أصابه ، فلما رأى الحجر الأسود موضوعا

---

(١) هى بلاد معروفة بكثرة علمائها من المسلمين ، وكانت ضمن بلاد ما وراء النهرين ، أما الآن فإنها تقع بين إيران ، وأفغانستان ، والاتحاد السوفيتى .

فى مكانه قال : من أين لك هذا ؟ ؟ قال : أعطانيه من لم يكلنى إليك .

وعن طاووس ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لَوْلاَ مَاطَبَعَ اللهُ تَعَالَى فِى الرُّكْنِ مِنْ أَنْجَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَرْجَاسِهَا ، وَأَيْدِى الظَّلَمَةِ وَالْأَثَمَةِ ، لاَسْتَشْفَى بِهِ مِنْ كُلِّ عَاهَةٍ ، وَلأَلْفَاهُ الْيَوْمَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى » .

وإنما غيره بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة ، إنه ياقوتة بيضاء ، فوضعه الله تعالى لآدم — عليه السلام — حين أنزله فى موضع الكعبة ، قبل أن تكون الكعبة ، والأرض — يومئذ — طاهرة لم يعمل فيها شىء من المعاصى ، ووضع الله تعالى له صفا من الملائكة على أطراف الحرم يحرسونه من جان الأرض ، وسكانها يومئذ الجن ، ليس ينبغى لهم أن ينظروا إليه ، لأنه من نظر إلى شىء من الجنة دخلها ، فهم على أطراف الحرم ، حيث أعلامه اليوم ، حافون به من كل جانب . . .

فذلك قوله تعالى (أَسْلِمْ) : أى أظهر الإسلام .

يقول : أظهر ما فى باطنك للناس ، فإنى بك عالم ، ولكنى أريد أن يعلم خلقى ، أى عبد أنت لى ، فأجاب الخليل — صلوات الله عليه — قال :

﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ، أى أظهرت ذلك :

وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوما :

« الْإِيمَانُ هَا هُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى قَلْبِهِ ، وَالْإِسْلَامُ هَاهُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ » .

قال أبو عبد الله — رحمه الله — : إنه لما اطمأن قلبه بربه تعالى اقتضاه إظهار ذلك بلسانه ، والاعتراف بعبودته ؛ ليكون لله تعالى حجة على من تعرض لدمه وعرضه وماله ، ولو أضمر ذلك فلم ينطق به لم تقم الحجة . على من تعرض له بظلم ، وكان يحتج بأنه لم يعلم بأنه حرام الدم والعرض والمال ، فأمر بإبراز ذلك باللسان ، لتقوم حجة الله تعالى بالعقوبة على من تعرض له ، فلذلك قيل : « حجة الإسلام » لأن فيها إظهار الافتقار إلى الله تعالى ، واللوذان إليه بعلمه لتعلمه .

ونستوفى معنى الحجر الأسود فى باب آخر إن شاء الله تعالى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة البقرة .

وروى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أنه قال : هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار ، فمن وجد لم يحج — وهو يجد سعة — أن أضرب عليهم الجزية ؛ والله ما أراهم مسلمين ؛ والله ما أراهم مسلمين » .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ آدَمَ - عليه السلام - أَتَى الْبَيْتَ أَلْفَ آتِيَة مِنَ الْهِنْدِ عَلَى رِجْلِهِ لَمْ يَرْكَبْ فِيهِنَّ » .

قال محمد بن على — رحمه الله — : حج من ذلك ثلاثمائة حجة ؛ وسبعمائة عمرة ، فلما استقبلته الملائكة قالوا : بر نسكك ؛ إنا قد طفنا بهذا البيت قبل أن تخلق بخمسمائة ألف عام .

قال : وكان البيت الذى بوأه الله تعالى لآدم — عليه السلام — يومئذ : ياقوتة حمراء تلتهب ؛ لها بابان ؛ أحدهما شرقى ؛ والآخر غربى وكان فيهما قناديل من نور الجنة ؛ أساسها من ذهب ؛ وهو منظوم من ياقوت أبيض ؛ والركن يومئذ نجم من نجومه .

عن محمد بن الحسن بن على الحسن بن على — رضى الله عنه — أنه قال : « ان الله تعالى قال للملائكة :

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1].

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة .

قالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ؟ ﴾[1] .

قال الله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[2] ﴾ .

قال : فظنت الملائكة أن هذا القول غضب من ربنا تعالى ؛ فجعلوا يطوفون بالعرش ؛ فنظر الله تعالى اليهم فرحمهم ؛ فقال لهم : أبنوا لى بيتا فطوفوا به ؛ فإن فى ذلك طاعتى ورضاى ؛ قال : فبنوا له بيتا على أربعة أساطين : أسطوانة من درة بيضاء ؛ واسطوانة من جوهرة من نور ؛ وأسطوانة من ياقوتة حمراء ؛ وأسطوانة من درة خضراء ؛ وأسطوانة من ذهب حمراء ؛ وحشوها من ياقوتة حمراء ؛ وسموه : « الضراح[3] » وهو البيت المعمور ؛ الذى يدخله كل يوم ألف ألف ملك يحجون إليه لايعودون ؛ فأوحى الله تعالى إليهم : أن طوفوا به ؛ فبعزتى وجلالى ؛ وجودى وكرمى ؛ وقدرتى وسلطانى ؛ مامنكم من أحد يطوف به إلا غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ فقالوا : يا ربنا هذا البيت لنا خاصة ؟ قال : — عز ذكره — : إن هذا البيت لكم خاصة ؛ ولذلك الخليفة[4] ولأولاده عامة للموحدين منهم ؛ فجعلوا

---

(١) نفس الآية السابقة .

(٢) نفس الآية السابقة .

(٣) هو البيت المعمور ، فى السماء الرابعة ، ووزنه : فعال : كغراب .

(٤) وهو آدم — عليه السلام — .

يطوفون به . قال : فمن طاف به فكأنما طاف بالبيت المعمور ؛ ومن طاف بالبيت المعمور : فكأنما طاف بالعرش ؛ ومن طاف بالعرش : فإن الله تعالى يستحي أن يعذبه[1] .

---

(١) إنه تعليل مقبول لمعنى قوله عليه السلام «من حج فلم يرفث ولم يفسق : رجع كيوم ولدته أمه » ، فلا عجب إذن أن يرجع مغفورا ذنبه مقبولا عند ربه ، لأن الله قد غمره بعطفه ورعايته حيث أكرمه ويسر له طوافه بالبيت الحرام المؤدى إلى البيت المعمور المؤدى إلى العرش المستوجب للمغفرة والبعد عن العذاب .

الباب الخامس

فضل الأيام العشر

قال مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله وسلم :

« مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هٰذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهَا مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ ، وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ » .

وفى رواية سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم زيادة :

« قِيلَ : وَلا الجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ : وَلاَ الجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ ، إلاّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَىْءٍ » .

وعن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« سَيِّدُ الشُّهُورِ : شَهْرُ رَمَضَانَ ، وَأَعْظَمُهَا حُرْمَةً : ذُو الحِجَّةِ » .

وعن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس ، فى قوله تعالى :

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾[1].

(وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ)[2].

قال: «المعدودات»: ثلاثة أيام التشريق، والمعلومات: العشر.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«صَوْمُ كلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ الأَيَّامِ: يَعْدِلُ صَوْمَ سَنَةٍ، وَكُلُّ عِبَادَةِ لَيْلَتَيْنِ: كَعِبَادَةِ لَيْلَةِ القَدْرِ».

وقد روى الضحاك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فى قوله تعالى:

﴿وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[3].

قال: «أقسم بهن لعظمهن على سائر الليالى».

وعن أبى سعيد الخدرى، عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال:

«مَنْ صَامَ يَوْمَ عَرَفَةَ: غَفَرَ اللهُ لَهُ سَنَةً أَمَامَهُ وَسَنَةً قَبْلَهُ».

وروى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ يَنظُرُ اللهُ إِلَى أَهْلِ عَرَفَةَ، وَيُبَاهِى بِهِمْ

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الحج.

(٢) من الآية ٢٠٣ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان: ١، ٢ من سورة الفجر.

الْمَلَائِكَةَ ، وَيَقُولُ : أَتَوْنِي شُعْثاً غُبْراً ، ضَاجِّينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَا رَبِّ إِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا وَفُلَانَةَ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أُولَئِكَ قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ » .

والمباهاة من الله تعالى : إعلان حسنات عباده عند ملائكته .

وعن العباس بن مرداس رضى الله عنه :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَشِيَّةَ عَرَفَةَ لِأُمَّتِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ فَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ ، فَأَجَابَهُ اللهُ : إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ إِلَّا ظُلْمُ بَعْضِهِمْ بَعْضاً ، فَأَعَادَ فَدَعَا ، فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّكَ قَادِرٌ أَنْ تَغْفِرَ لِلظَّالِمِ وَتُثِيبَ الْمَظْلُومَ خَيْراً مِنْ مَظْلَمَتِهِ مِنْ عَبْدِكَ ، فَلَمْ يَكُنْ تِلْكَ الْعَشِيَّةِ إِلَّا ذَا ، فَلَمَّا كَانَتْ الْمُزْدَلِفَةَ : دَعَا لِأُمَّتِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَبَسَّمَ ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : يَارَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، تَبَسَّمْتَ فِي سَاعَةٍ لَمْ تَكُنْ تَضْحَكُ فِيهَا ، فَمَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : تَبَسَّمْتُ مِنْ عَدُوِّ اللهِ إِبْلِيسَ حِينَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَجَابَنِي فِي أُمَّتِي ، أَهْوَى يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ ، وَيَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَتَبَسَّمْتُ مِمَّا صَنَعَ بِنَفْسِهِ مِنْ خِزْيِهَا » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾[1] .

---

(١) الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ من سورة الفجر .

قال : الفجر أول يوم من محرم ، لأنه منه تنفجر أيام السنة ؛ والشفع هو الخلق ، والوتر هو الله عز وجل . ذكر القسم بنفسه ، وبما خلق . وقوله :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[1].

قالوا : هي ليلة المزدلفة إذا سرى الناس . وقال عليه السلام :

« مَنْ تَصَدَّقَ يَوْمَ عَرَفَةَ احْتِسَاباً ، قَبِلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ ، وَكَانَ كَمَنْ أَدْرَكَ ما فَاتَهُ مِنْ صَدَقَاتِ السَّنَةِ » .

وروى أن آدم — عليه السلام — أقبل من السند والهند حاجا وكان وقت الحر الشديد ، فعطش ، فشكا ذلك إلى جبريل — عليه السلام — فنفخ جبريل عليه السلام فى الأرض نفخة خرج منها الماء ، فسقى منها آدم عليه السلام ، فقال : ياجبريل رويت ، فسميت « تروية » وقال قوم : لأن الناس يتروون تحت رحمة الله .

سبب تسمية يوم عرفة :

وسميت يوم عرفة : لاجتماع الناس بعرفات ؛ وهو مأخوذ من : « العرف » وهو الطيب ؛ لأنهم إذا وقفوا بعرفات طيب الله تعالى نفوسهم ؛ وطهرهم من خطاياهم وذنوبهم فى عرفة .

وقيل فيه : لما حج آدم عليه السلام كان جبريل عليه السلام يعرفه

---

(١) الآية : ٤ من سورة الفجر .

المناسك ؛ ويقول آدم : عرفت ؛ فسمى يوم عرفة . وسميت البقعة « عرفات » .

وروى عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يقول :

« نِعْمَ اليَوْمُ : يَوْمُ عَرَفَةَ ، لِأَنَّ أَهْلَ الأَرْضِ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ » .

وقيل : إن الحور يستأذن رضوان فيطلعن على أزواجهن ؛ فلذلك سميت « عرفة » .

وروى عن على رضى الله عنه ؛ أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول يوم عرفة :

« خَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِى فِى هٰذَا اليَوْمِ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَىٌّ لاَ يَمُوتُ ، بِيَدِهِ الخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٍ ، اللّٰهُمَّ اجْعَلْ فِى سَمْعِى نُوراً ، اللّٰهُمَّ اجْعَلْ فِى صَدْرِى نُوراً ، اللّٰهُمَّ اجْعَلْ فِى قَلْبِى نُوراً ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرِّ مَا تَهُبُّ بِهِ الرِّيَاحُ ، وَمِنْ شَرِّ ذِى شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

الباب السادس

شأن الحج وأقسامه

تقسيم المناسك إلى عمرة وحج :

المناسك : عبارة عن جميع أنواع القرب فى لسان العرب ، ومنه قول الله عز وجل :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾[1] .

ومنه تقول : فلان ناسك ومتنسك ، تريد به « عابد ومتعبد » .

واذا أطلق هذا اللفظ فى الشريعة ، فإن المفهوم به : العبادة التى تختص بتعظيم الله تعالى وبيته ، وما يتصل به من الأمور التى لابد للمتعبد منها ، اذا قصد بيته تعالى ، فهذا النوع من العبادة فى تحصيله وكونه ، وذلك فى الجملة .

أولا : ينقسم الى قسمين :

(ا) عمرة . (ب) حجة .

---

(١) من الآية : ٦٧ من سورة الحج .

فأما العمرة : فهى الزيارة ؛ يقال : اعتمرت فلانا أى زرته ؛ ومنه قول الشاعر :

* وراكب جاء من تثليث معتمراً *

وأما الحجة : فهى مأخوذة من الحج الذى هو القصد مرة بعد أخرى ؛ ومنه قول القائل :

وأشهد من عوف حؤولا كثيرة
يحجون سب الزبرقان المزعفرا

صفة العمرة ووقتها وحكمها :

فأما العمرة : فصفتها فى الشريعة :

(ا) إحرام بها « لبيك اللهم لبيك » ؛ أو بغير ذلك من اللفظ الذى يصح الدخول به فيها .

(ب) ثم طواف .   (ح) وسعى .

(ء) وحلق .

وبالحلق يتحلل منها ؛ حتى لا يبقى عليه شىء .

وجميع السنة وقت لها ؛ إلا خمسة أيام ؛ فإن أداءها بانفرادها مكروه فيها ؛ وهذه الأيام الخمسة هى : يوم عرفة ؛ ويوم النحر ؛ وثلاثة أيام بعده .

وهى ليست بواجبة . الا أن يوجبها على نفسه بنذر .

صفة الحج وأحكامه :

وأما الحجة : فإنها فى الجملة تشتمل فى الشريعة على ثلاثة أنواع من الفعل :

١ — نوع جعل ركنا فيها ، وهو على ثلاثة أقسام :

(ا) قسم يمنع عدمه الدخول فيها ، وهو الإحرام .

(ب) وقسم يحكم عليها بالفساد عند عدمه ، كالوقوف بعرفة ، والامتناع من الجماع قبل حصول الوقوف .

(حـ) وقسم تركه يبقيه على إحرامه ، كطواف الزيارة .

٢ — ونوع هو واجب فيها لا يسع الحاج تركه ، كالسعى بين الصفا والمروة ، وكالوقوف بالمزدلفة ، وكالحلق ، ورمى الجمار ، وطواف الصدر ، والطهارة فى الطواف ، وكمراعاة الميقات للإحرام ، وترك الجماع والطيب ، وقتل الصيد .

٣ — ونوع هو مستحب ، كطواف التحية ، وكاستلام الحجر ، والرمل[1] فى الطواف ، والسعى فى بطن المسيل ، وما شابه ذلك .

صفة الإفراد والقران والتمتع :

ثم الحجة التى ذكرناها ، فإن المحرمين بها على أوصاف ثلاثة :

١ — مفرد . ٢ — وقارن . ٣ — ومتمتع .

---

(١) الرمل ـ بفتح الراء المهملة وتشديدها ـ هو : الهرولة .

فأما المفرد : فإنه يرتفع له نسك الحج بإحرام واحد ، فى سفر واحد أو سفرين من غير أن يحصل له عمرة فى أشهر الحج فى سنته تلك أو يحصل له طوافه فيها .

وأما المقرن : فصفته أن يرتفع له النسكان — نسك العمرة ، ونسك الحجة — بإحرام واحد فى السفر الواحد وفى سفرين .

وأما المتمتع : فصفته أن يرتفع له هذان النسكان فى أشهر الحج بإحرامين فى سفر واحد ، ثم ينظر فى أمره ، فإن لم يسق الهدى فهو على إحرام عمرته .

وأما حكم الإفراد فإنه « الإباحة لجميع المسلمين عامة ، وهو لأهل مكة ولمن هو بحكم أهل الميقات خاصة » .

وأما التمتع والقران : فقد حظر على حاضرى المسجد الحرام ، وهم أهل مكة . ومن هو من أهل الميقات فما دونه إلى مكة ، وأبيح فعلهما لمن ليس من حاضرى المسجد الحرام .

من أين تبدأ مواقيت الإحرام ؟ :

وكل من أراد الإحرام لشىء مما ذكرنا ، على إحدى الصفات التى قسمنا ، فإنه ينظر : فإن كان مكيا فيقاته لإحرام حجه من دويرة أهله ولإحرام عمرته من الحل .

وإن كان من أهل المواقيت خارج الحرم ، فميقاتهما جميعاً من دويرة أهله ، وإن كان من أهل الآفاق : نظر ، فإن كان من أهل

العراق : فميقاته « ذات عرق »[1] ، وإن كان من أهل المدينة : فميقاته « ذو الحليفة »[2] وإن كان من أهل الشام : فميقاته « الجحفة »[3] ، وإن كان من أهل نجد : فميقاته « قرن »[4] ، وإن كان من أهل اليمن : فميقاته « يلملم »[5] . فإن قدم إحرامه كان أفضل له ، وإن أخره عن ميقاته لزمه دم .

وإن أحرم فى أشهر الحج لحجته : صح إحرامه عند علمائنا ، إلا أنه يكره له أن يحرم للحج قبل أشهر الحج .

---

(١) هو ميقات أهل العراق ، وهو على مرحلتين من مكة ، وهى الحد بين أهل نجد وتهامة .

(٢) هو ميقات أهل المدينة ، وهو على بعد ستة أميال من المدينة .

(٣) هو ميقات أهل الشام ومصر والمغرب ، وهو على طريق المدينة على سبع مراحل منها . وسميت جحفة لأن السيل جحفها وحمل أهلها . وتبعد عن مكة بثلاث مراحل .

(٤) وهو ميقات أهل نجد ، ويقال له قرن المنازل ، وقرن الثعالب . وأصل القرن الجبل الصغير .

(٥) هو ميقات أهل اليمن ، وهو على بعد مرحلتين من مكة ، وقيل هو جبل بتهامة .

الباب السابع

حج الفرض وحج القرب

أركان الحج من القرآن وتوضيح ذلك :

قال الله — عز وجل — :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾[2].

ففي هاتين الآيتين عموم أركان الحج ، وسنبين ذلك بفضل الله وتأييده .

صفة الإذن وأقسامه :

فالإذن على وجوه :

---

(١) الآيتان : ٢٨ ، ٢٨ من سورة الحج .

(٢) الآية : ١٠٠ من سورة النساء .

(ا) إذن من طريق الظاهر : وهو الإذن من لسان إبراهيم — عليه السلام — لأهل الظاهر ، لأنهم سمعوا من لسانه ولم يجاوزوه ، فإذا كشف لهم هذا الإذن : وجب عليهم أن يتبعوا أحكام الظاهر من الشريعة .

(ب) وإذن هو أعلى : وهو رؤية الإذن من الله تعالى على لسان إبراهيم — عليه السلام — فجازوا إلى الله تعالى ، أمر الله تعالى فى استعماله إياه بالإذن ، فإذا تحرك هذا الإذن فى سرهم كانوا فى الظاهر متابعين للخليل — عليه السلام — ومن الباطن ناظرين إلى الحقيقة ، وتلك الحركة التى تهيج فى أسرارهم هى من ذلك الإذن . ألا ترى إلى ما روى المقداد بن الأسود[1] رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« إنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُيَسِّرُ لِعَبْدٍ خَيْراً إلاَّ بِالرِّضَا » .

فإذا رضى له أطلق الحج ، فيرى إطلاق الله تعالى ، فى رفع الحجاب وإكرامه بالنية ، كما قال أبو سليمان الدارانى[2] : « النية قول يقذفه الله تعالى فى القلب » .

---

(١) هو الصحابى الجليل : أبو الأسود المقداد بن الأسود ، واشتهر بذلك لأن كان فى حجر الأسود بن عبد يغوث فتبناه ونسب إليه ، وهو من السابقين فى الإسلام توفى بالجرف بالقرب من المدينة فى خلافة عثمان ، سنة ٣٣ هـ .

(٢) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى ، وينسب إلى قرية داريا من قرى دمشق ، كان كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع ، توفى سنة ٢١٥هـ

(ح) وإذن هو أعلى من هذا ، وهو رؤية الإذن من الله تعالى ، من غير أن يكون فيه مشاهدة غيره ، وهذا لأهل الفناء ، لأنهم سمعوا فى السر من الله — عز وجل — ظهر لهم نور الحق بالإذن ، فغيبهم عن الخلق — وإن كانوا حاضرين ، بل بمعناهم حاضرين ، شهدوا به جل اسمه ما أجرى لهم فى الأزل وأظهره لهم ؛ يدل على هذا : مايظهرون فى التلبية فيقولون « لبيك اللهم لبيك » ، فيظهرون الإجابة لله تعالى صرفا ، ولله القول الحق .

والآذان والإذن قريبة بعضها من بعض ، ولكن الإذن أعم ، لأن فى الإذن إعلاما وإطلاقا ، وليس فى الآذان ذلك ، ولذلك ذكرناه بالإذن ، لأن الآذان بمنزلة الإذن الأزلى ؛ ومن لم يكن له الإذن الأزلى لم يقربه .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾(١)

تقسيم الحج إلى فرض ، وقرب :

ثم الحج على وجهين : حج بأمر الله تعالى ، وحج بقرب الله تعالى

(ا) أما الحج بأمر الله تعالى : فحج الفرائض .

(ب) وحج القرب : حج المشاهدة معه والتمكين ، أى : التمكين فى الحكم عند جريان القضاء .

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة النور

وقيل : حج القرب : من مشاهدة استعمال الله تعالى إياه .

وحج الفرض : سعى الأبدان مع تلف الأموال ، وحج القرب : سعى القلب مع طيران الروح .

تفسير آخر للحج من وجهين :

ثم تفسير الحج على وجهين :

أحدهما : هو الوصول بسره ، وهو الحج بالله إلى الله تعالى ، أى : المقصد إلى الله تعالى — عز وجل — به ، وهذا كما قيل « إذا قصدت فقد وصلت » . هذا هو القصد به إليه ، فعند أول خطرة اتصل بسره ، وهذا كما قال النبي — صلى الله عليه وسلم — عن الله تعالى :

(الحاج وفدى وزوارى) .

فأولا : يفد قلبه إلى ربه تعالى ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد لكنه لشغله بغيره كان يرى بغيته من البعد ، فلما تفرغ شاهد قربه ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد .

ثانيا : ثم يفد بجسده إلى البيت .

والوجه الآخر : هو القصد إلى البيت مرة بعد مرة ، ومعنى القصد : ترك الخلاف ، لأنه لا يصح القصد إلا بالموافقة وترك الخلاف فإذا كان خلاف فليس بقصد .

والقصد على ثلاثة أوجه :

١ — ترك الخلاف فيما بينك وبين الله تعالى ، وهو ترك الذنوب

الظاهرة ، وترك العيوب الباطنة ، وترك المنازعة فيما يظهر من أمر القضاء .

٢ — وترك الخلاف فيما بينك وبين الخلق . وهو كف الأذى عنهم ، والرفق بهم ، واحتمال الأذى منهم .

٣ — وترك الخلاف فيما بينك وبين نفسك : وهو هجران أخلاقها وهجرها ، وفى هجرها وصلها ، ألا ترى إلى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه :

« أَلاَ أُخْبِرُكُمْ مَنْ إِذَا أَحْسَنْتُمْ إِلَيْهِ شَكَاكُمْ ، وَإِذَا أَسَأْتُمْ إِلَيْهِ شَكَرَكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تِلْكَ نُفُوسُكُمْ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكُمْ » .

فالعوام : قصدهم بالأنفس والأجساد .

والخواص : قصدهم بالقلوب والأرواح .

وأهل الصفاء : يشهدون ما جرى فى الأزل ، وما يظهر فى الأبد ، لاقصد لهم ، وإنما قصدهم بالله تعالى ، قال الله تعالى :

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ، وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾[1] .

فقصدهم لا بقصدهم ، ولكن قصدهم بالله — عز وجل — لا بهم ، وهذا كما قيل :

---

(١) الآية ٩ من سورة النحل .

من أين لى قصد وإنى لناسك
أسير بلا كيف وأسعى بلا قصد

يسيرنى حى فأسعى بقصده
فإن شا إلى قرب وإن شا إلى بعد

قال معروف الكرخى[1] — رحمه الله — رأيت رجلا بالبادية يمشى بلا زاد ، فقلت : إلى أين تريد ؟ قال : لا أدرى ، قلت : هل رأيت رجلا يريد مكانا لا يدرى ؟ قال : أنا أحدهم ، قلت : فأين تنوى ؟ قال مكة ، قلت : تنوى مكة ولا تدرى أين تذهب ؟ قال : نعم ، وذاك لأنى كم مرة أردت أن أذهب إلى مكة ، فيردنى إلى طرسوس[2] ، وكم مرة أردت طرسوس فيردنى إلى مكة ، قلت : من أين المعاش ؟ قال : من حيث يريد ، يجوعنى مرة والطعام حاضر ، ويشبعنى مرة والطعام غائب فقد ألقانى فى بحر لا شاطىء له .

ثم قال تعالى :

---

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى ـ رضى الله عنه ـ ، كان شيخا ورعا زاهدا ، مجاب الدعوة ، توفى ببغداد ودفن بها سنة ٢٠٠ هـ .

(٢) هى مدينة فى تركيا بين أنطاكية وحلب ، وكانت من الثغور ، بناها سعد بن الحسن بأمر من المهدى ، ثم عمرها ومصرها هرثمة بن أعين بأمر من من الرشيد سنة ١٧١ هـ ، وتم بناؤها وسكناها وتخطيطها سنة ١٧٢ هـ .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[1] .

فأخبر أنهم يشهدون المنافع فى جميع الأحوال . فكلٌّ « يشهد من المنافع على مقدار ما كشف له ، ألا ترى إلى قوله : (ليشهدوا) ، ولم يقل : « ليكسبوا » ، واللام « لام كى » ، أى يشهدوا منافع هى لهم ، وكل له منافع فى العاجل والآجل كتبت لهم ، وهو فضل الله الذى سبق لهم ، واختاره لهم . فأهل الصفا يشهدونها بإشهاد الله تعالى على ما هيأ لهم فى الأزل . وما يظهر لهم فى الأبد : لأنهم عرفوا أنه هو المبدىء والمعيد . وقال عز ذكره :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[2] .

أى : كما بدأكم فى علم الغيب فى الأزل ، تعودون كذلك فى الظاهر فى الأبد ، فيشهدون من وقت إتيانهم الدنيا ، إلى وقت وصولهم : منافع لهم كل على المراتب فى كل ركن .

يدل عليه : ما روى عمرو بن شعيب[3] ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الحج .
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الأعراف .
(٣) هو أبو إبراهيم : عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن العاص وهو من تابعى التابعين ولكنه كان إماما جليلا روى عنه التابعون مثل عطاء وغيره .

« مَنْ خَرَجَ يُرِيدُ الطَّوَافَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ ، فَإِذَا قَضَى عُمْرَتَهُ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ ، وَكَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ يَضَعُهُ : خَمْسُمِائَةِ حَسَنَةٍ ، وَمَحَا عَنْهُ خَمْسُمِائَةِ سَيِّئَةٍ ، وَرَفَعَ لَهُ خَمْسُمِائَةِ دَرَجَةٍ » .

والرحمة : ليست بمحدثة ولا مكتسبة ، ولكن فضل من الله هيء لهم ليشهدوه .

والذى يدل عليه أيضا : ما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : (منافع لهم) : يعنى : الرحمة . وروى عن مجاهد : [فى تفسير المنافع] منفعة الدنيا والآخرة . وقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً ﴾(١) .

فالسبيل : سبيلان ، سبيل من طريق الظاهر : وهو إقامة الأمر والنهى . وسبيل من طريق السر : وهو التوحيد .

تفسير التوحيد :

وتفسير التوحيد : هو قطع السر عن الأسباب والآلات والأدوات . فأهل الصفا : هاجروا بسرهم إلى الله تعالى من طريق التوحيد ، لا بالأسباب وهاجروا بالظاهر إلى بيته من طريق إقامة الأمر والنهى ، لأن الله تعالى تفضل على عبيده فجعل هذا البيت معلما وسبيلا إليه من

---

(١) من الآية ١٠٠ من سورة النساء .

طريق الظاهر . ألا ترى إلى قول ابن عمر : « الحاج فى سبيل الله » ، يعنى : إن عجز عن الهجرة إليه بسره عن طريق التوحيد ، فلم ينقطع عن الاعتماد على الأسباب إلى ولى الأسباب : أقيمت له هـــذه الهجرة إلى معلمه — من طريق الظاهر — مقام ذلك . وهـذا رحمة الله وفضله على عباده ، وكذلك العبادات كلها ؛ فالصلاة رحمة : لأنها جعلت كفارة للذنوب ، وكذلك الطهارة ، على ما نطقت به الأخبار ؛ وكذلك الزكاة .

وجعل لهم الإتيان إلى هذه المعالم تمحيصا لمـا كان منهم من النظر إلى غير الله تعالى. فهذه هي الأسباب ، ففى كل ركن من أركان الحج يشهدون ذلك بالتمحيص ، والله تعالى ولى ذلك من فضله . وهكذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« الْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ » .

وروى أنه قال عليه الصلاة والسلام :

« مُؤْمِنٌ ضَعِيفٌ ، وَمُؤْمِنٌ قَوِىٌّ : فَأَقْوَاهُمَا أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَكِلَاهُمَا يُحِبُّهُمَا اللهُ تَعَالَى » .

فمن كانت هجرته إلى الله تعالى من طريق تحقيق التوحيد : فذلك هو القوى ، والذى لم يحقق التوحيد حتى نظر إلى الأسباب وركن إليها ، ومال إليها : فهو الضعيف ، ففرضت عليه الحجة رحمة من الله عز ذكره ، تمحيصا له ، وتجديداً للعهد عند الحجر الأسود .

والذى يدل على صحة هذا : قول على — رضى الله عنه — :

« ما كل من وحد يدرى ما اعتقد ؛ ولو درى فليس يدرى من عبد ؛ الناس فى الظاهر والباطن ما بين : خصوص ، وعموم ، وطرد ؛ ما أجهل الناس فى عرفانهم وإن قالوا :

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[1].

فدل قول على — رضى الله عنه — : أنه ليس كل من أقر بالتوحيد فقد حقق التوحيد ، ولكنه إذا حج صارت الحجة له تحقيقا لتوحيده فضلا من الله تعالى ورحمة . وقوله عز ذكره :

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[2] .

فواحد يخرج من بيته — وهو مسكن الأجساد — : مهاجرا إلى المعلم الظاهر ، وأهل الصفا : يخرجون من تكلفهم وحولهم وقوتهم ونظرهم : إلى الله عز وجل ، بحوله وقوته من طريق الحقيقة ؛ وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم من طريق الشريعة ، فهم فى أول قدم يرفعونه : مهاجرون إليه ، واصلون بسرهم قبل وصولهم بالأجساد : إلى المعلم الظاهر ، فإذا اتصل سره بربه — عز ذكره — كان الله تعالى رفيقه

---

(١) الآية الأولى من سورة الصمد .

(٢) من الآية ١٠٠ من سورة النساء .

فى عموم حالاته ، وصاحبه فى جميع أوقاته ، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِى الأَهْلِ وَالْوَلَدِ » .

ولهذا قيل : « الرفيق قبل الطريق ، والجار قبل الجوار » .

ومن عجز عن التبرى من حوله وقوته ، فكان معتمداً على حوله وقوته : أقيم له الخروج من بيته إلى بيت الله تعالى : مقام ذلك ، فضلا منه ورحمة . وقيل فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾[1] .

أى : معتمدا على نفسه ، وهواها متابعا .

وإذا خرج من وطن جسمه إلى بيت الله — عز وجل — جعل ذلك تمحيصا له ، كما قال — عليه الصلاة والسلام — :

« مَنْ خَرَجَ يُرِيدُ الطَّوَافَ خَاضَ فِى الرَّحْمَةِ » .

وتفسير الرحمة : جذب الهمم ، أى جذب همته إليه وعصمتها من من التفرقة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والرفيق : أخذ من الرفق ، والرفق : تحمل مؤونة الغير وترك

---

(١) الآية ١٣ من سورة الانشقاق .

مؤونة نفسه ، والله عز وجل ، هو الرفيق ، لأنه تحامل به خلقه ، لأنه أعانهم فى إقامة العبودية ، وزينهم بأنوار الحقيقة ولم يحمل عنهم المرفقة أن يرزقوا أنفسهم ، بل تكفل بأرزاقهم ، فمن رافق ربه تعالى فهو الرفيق العارف ، ومن خالف فهو أخرق ، وقد قال عليه السلام :

« مَا دَخَلَ الرِّفْقُ فِى شَىْءٍ إلاّ زَانَهُ ، وَمَا دَخَلَ الْخُرْقَ فِى شَىْءٍ إلاّ شَانَهُ » .

فإذا صحت له العزيمة ، وظهر له الإذن : أرضى الخصماء ، وأول خصمه ربه تعالى ، فيرضيه ، بألا يخالفه ما دام حيا ، ولا يؤذى خلقه، ويرضى خلقه من الخصماء ، ويقضى الديون .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« لاَ يَأْذَنُ اللهُ تَعَالَى لِعَبْدٍ بِالْحَجِّ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ » .

فإذا ظهر له الإذن يجب له الشكر ، وشكره : أن يترك الخلاف الذى ذكرنا ، ويقطع سره عن النظر إلى ما سوى الله عز وجل ، ويكون أبدا ناظرا إلى الله عز وجل ، راغبا فيما عند الله تعالى : وهو فضله وجوده ورحمته ، راغبا عما سوى الله تعالى ، لا يبتغى بالله عز وجل بدلا ، ولا عنه حولا ، قال الله عز ذكره :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ﴾[1].

---

(١) من الآية : ٩٦ من سورة النحل .

وأهله كانت عنده أمانة ، فإذا ظهر الإذن بعد الرضا والدعاء إلى المعلم : يرد الأمانة إلى أهلها ، وهو الله عز وجل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وقال عز ذكره :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾[1] .

طالب أن ترد أهلك إليه ، وتجعله وكيلا ، وتترك عندهم قوت سنة ، إتباعا لشريعته . فتكون فى ذلك مراعيا للحقيقة والشريعة .

فإذا أراد الخروج من بيته صلى ركعتين : إتباعا للسنة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ، فيصلى فى الظاهر : متابعة للمصطفى صلى الله عليه وسلم وفى الباطن يشهد من ذلك الاتصال بالله تبارك اسمه . لما ذكرنا أن خروجه من بيته أقيم مقام التبرى من الحول والقوة ، فإذا تبرى من حوله وقوته : إتصل بربه تعالى

ويقول عند الخروج : ما روى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقول قبل الخروج :

« اللَّهُمَّ بِكَ انْتَشَرْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ،

---

(١) من الآية : ٥٨ من سورة النساء .

وَبِكَ اعْتَصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ تَوَجَّهْتُ ، اللَّهُمَّ وَجِّهْنِي لِلْخَيْرِ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ ، أَنْتَ ثِقَتِي وَرَجَائِي » .

فقوله عليه السلام : « بك انتشرت » ، فيه إشارة إلى التبرى من حوله وقوته ، والتمسك بحول الله وقوته ، وهو كنز من كنوز الجنة ، ألا ترى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لأصحابه :

« أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ قَوْلُ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ » .

وقوله : « عليك توكلت » : أشار إلى أن اعتمادى على الرزق الذى يظهر من المشيئة ، لا على ما أستصحبه مع نفسى ، والرزق الذى يظهر من المشيئة رزقان : رزق أبدان ، ورزق أديان ، وهما جميعاً : مغيبان فى المشيئة ، ولا يظهران إلا من المشيئة ، وهذا تعليم من المصطفى صلى الله عليه وسلم لأمته ، ليعتمدوا على الله تعالى ، حتى إن فات منهم ما استصحبوه ، لأخرجوا إلى سواه دون شىء من الضجر والجزع والظن الفاسد .

وقوله عليه السلام : « اللهم بك اعتصمت » ، فإن الاعتصام على وجهين : اعتصام بحبل الله تعالى ، وهو اعتصام بالله تعالى من طريق الأمر والنهى ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ﴾[1] .

واعتصام بالله تعالى من طريق الأسماء والصفات ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

فالاعتصام من طريق الأمر والنهى للأبدان ، والاعتصام من طريق الأسماء فى السر ، لأن السبيل سبيلان : سبيل الأمر والنهى : وذلك للبدن ، وسبيل فى السر : وهو مشاهدة الأسماء والصفات ، حتى إذا قرع سمعه اسم من أسماء الله تعالى : لا يشهد غير الله عز ذكره ، نحو اسمه « العالم » ، لا يشهد فى الحقيقة عالما غيره ، وكذلك اسمه « القادر » ، لا يشهد قادرا غيره ، وكذلك جميع الأسماء .

وقوله : « وإليك توجهت » ، فيه إشارة إلى أن توجه سرى إليك ، وإلى المعلم الظاهر ، فمن أكرم بتوجه سره إلى الله — جل اسمه — ، فقد نال الحظ الأوفر ، والكأس الأوفى ، فيتم له ذلك بالتوجه إلى المعلم : إقامة لسنة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فإذا ركب الراحلة فى الظاهر : يشهد فى السر أن الله هو الذى يحمله بضعفه ، ويشهد الله تعالى فيما يستعمله ، ولا يشهد غيره .

ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم : كان إذا ركب يقول :

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١٠١ من سورة آل عمران .

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[1].

فصار يشهد صنعه فيما يستعمله ، ولا يشهد غيره . لهذا قال : سبحان الذى سخر لنا هذا ، فنزه الله تعالى أن يكون له شريك فى صنعه ، ويشهد صنعة الله فى تسخير المركوب ، كما روى عن عمر ، رضى الله عنه ، وابن الحكم ، عن ثوبان[2] ، عن أبى لاس الخزاعى رضى الله عنه ، قال : « حملنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على إبل من إبل الصدقة ضعاف لنحج ، فقلنا : يا رسول الله ، ما يدعك تحملنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلاَّ وَعَلَى ذِرْوَتِهِ شَيْطَانٌ ، فَاذْكُرُوا اللهَ عَلَيْهَا إِذَا رَكِبْتُمُوهَا ، ثُمَّ امْتَهِنُوهَا ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » .

وكان يقول إذا استوى :

« اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِى الأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنِى فِى سَفَرِى ، وَاخْلُفْنِى فِى أَهْلِى » .

---

(١) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الزخرف .

(٢) مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصابه سباء ، فاشتراه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأعتقه ولم يزل معه فى السفر والحضر ، ولما توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج إلى الشام وسكن حمص وتوفى سنة ٤٥ هـ .

وقد ذكر الخبر بتمامه قبل هذا ، وفيه دليل على جميع ما ذكرنا .

ألا ترى أنه أشار إلى أن يسلم الأهل إلى الله تعالى ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « اخلفنى فى أهلى » ، إشارة إلى أن تكون صحبته مع الله تعالى : حتى لا يشهد غيره فى سره .

ويرافق أصحابه على الرفق . فأهل الصفا يصحبونه فى الأحوال كلها ، فيقيمهم الله — عز وجل — فهو يصحبهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أنت الصاحب فى السفر » ، فيشهدهم الحقيقة ، وهو ما هيأ لهم فى الأزل : فيظهر لهم فى الأبد ، وذلك الرفق ، فإذا شهدوا ذلك ظهر منهم حسن المعاملة ، وحسن العشرة مع الرفقاء ، لأنهم يشاهدون الله — جل جلاله — فيما يظهر منهم ، أنه تعالى هو الذى يظهره .

وهذه المعانى يحتاج إليها فى كل منزل ومرحلة ، إلى أن تقطع المراحل كلها ، فقطع المراحل للعامة : من طريق الأوطان ، يقطعون المراحل الظاهرة ، فيزدادون كل يوم قربا إلى الميقات .

والخواص : يقطعون مراحل الأنفس ، وهو خروجهم من أخلاق النفس ، إلى أسماء الله وصفاته ، وقد جاء فى الحديث :

« إِنَّ لِلهِ تَعَالَى مِائَةً وَسَبْعَةَ عَشْرَةَ خُلُقًا ، مَنْ أَتَى بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

فيقطع من أخلاق نفسه ، إلى أخلاق الكريم جل ذكره ، ويقطع

تسر من صفات البشرية إلى أسماء الله تعالى وصفاته ، فهذه مراحلهم ، فهم يزدا دون كل يوم قربا إلى الحق — جل جلاله — وبعداً عن مشاهدة الخلق ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

« اطْوِ لَنَا الْبُعْدَ » .

أى : البعد من أخلاق النفس على معنى الباطن ، فهم فى كل وقت تظهر لهم الزيادة من المشاهدة والقرب ، وإن كانوا فى أو طانهم فى حال الصفاء . ومن ظن أنه قد بلغ من الصفاء الغاية التى لازيادة عليها ، فهو الزائغ عن السبيل ، إذ لاغاية للقرب من الله جل ذكره ، ونقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« كُلُّ يَوْمٍ لاَ أَزْدَادُ فِيهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى عِلْمًا ، فَلاَ بُورِكَ لِى فِى طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ » .

وأما أشراف الخواص : فإنهم يقطعون مراحل الأحوال إلى محول الأحوال ، ثم يقطعون مراحل الرؤية ، حتى لا تبقى لهم رؤية ، قال الله عز وجل :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾[1] .

فإذا انتهوا إلى الفناء ، فقد بلغوا الميقات ، لأنهم ماتوا عن صفاتهم

---

(١) الآية : ٤٢ من سورة النجم .

وحيوا بالحق جل جلاله ، فحينئذ يجب عليهم الغسل ، وأن يلبسوا اللباس، وسنذكره إن شاء الله .

فمن عجز عن قطع أخلاق النفس والركون إلى مناها ، أقيمت له المقاساة فى قطع هذه المراحل فى سفره : مقام القطع عن أخلاق نفسه ، فضلا من الله تعالى وكرما ، إنه لطيف بعباده .

تقسيم السفر :

والسفر سفران : سفر من طريق الظاهر ، وسفر من طريق الباطن، وهو سفر إلى الله تعالى من طريق السر ، وهو هجر الأخلاق النفسية ، وهذا لأهل الصفاء ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

« سَافِرُوا تَصِحُّوا » .

أى : سيروا إلى الحق ، تصحوا عن ملاحظة غيره ، لأن ملاحظة غيره سقم ، والإقبال على الله تعالى شفاء ، وقوله صلى الله عليه وسلم :

« السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ » .

لأنه يقاسى فى هجر أخلاق النفس ، كما يقاسى فى قطع المراحل ، ولأنه ما دام فى السفر فهو على وجل : أيصل أم لا ، فوجله : قطعة من العذاب ، لكل على قدر المراتب ، فكان هذا السفر بدلا من العذاب وتمحيصا ، كما كانت الحمى بدلا من عذاب النار وتمحيصا .

النفقة وأنواعها :

قال أبو عبد الله رحمه الله : ولابد لهم من النفقة لقطع هـذه المراحل ، فالعامة : نفقتهم الدراهم والدنانير .

وأما الخواص : فنفقتهم ما قال الله تعالى :

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[1] .

والتقوى على وجوه : فتقوى الخواص من طريق الظاهر ؛ ذكر الله عز وجل ، عند كل حركة تظهر منهم ، وعند كل نفس ، وهذا يثمر التخلص من الذنوب والعيوب . ومعنى آخر فى السر : مشاهدة الحقيقة ، وهو أن يشهد استعمال الله تعالى إياه بهذا الذكر .

وتقوى خواص الخواص : وهى تقويم صفاء الحركات وصفاء الأنفاس ، حتى لايكون إلا بالله ، وإلى الله ، لأن عيشهم بالله ، واعتمادهم على الله عز وجل ، كما أن العامة اعتمادهم على الزاد الظاهر وعيشهم به .

ومعنى آخر للتقوى : وهو غيبتهم عن الأسباب ، وعن ملاحظة الموجودات ، وعن مشاهدة ما سوى الله تعالى ؛ فكما أنه إذا دخل النقص فى زاد العامة : دخل النقص فى قطع مراحلهم ؛ كذلك الخاصة إذا دخل النقص فى زادهم ، حتى حصلت منهم حركة أو نفس لغير الله

---

(١) من الآية : ١٩٧ من سورة البقرة .

تعالى . أو ملاحظة سبب دون ما غيب عنهم فى المشيئة : حصل النقص فى مراحلهم ، فلا يمكنهم الوصول ، دليله قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[1] .

وأما أشراف الخواص : فزادهم فناؤهم عن وجه الصفا . وقيامهم بالعلى الأعلى ، ثم فناؤهم عن رؤية هذه الرؤية ، فإذا بلغوا هذا فقد بلغوا الميقات .

ما يجب فعله عند بلوغ الميقات :

وأول ما يجب على الإنسان إذا بلغ الميقات : الغسل أو الوضوء ، فالغسل الظاهر : هو غسل الأعضاء كلها ، والوضوء هو غسل أعضاء معلومة .

وأما من طريق الباطن : فالوضوء ترك الذنوب ، والغسل هو التبرى مما سوى الله عز وجل .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال :

« اللّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ وَذُنُوبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ » .

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة الزخرف .

فزع الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى غسل الخطايا بالطهارات .

فمن عجز عن ترك الذنوب : أقيم له الوضوء مقام ذلك ، ومن عجز عن التبرى مما سوى الله عز وجل : أقيم له الغسل مقام ذلك ، كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال :

« مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوءَ الصَّلَاةِ تَنَاثَرَتْ خَطَايَاهُ » .

وإنما قلنا عند عدم التبرى : أنه يغتسل ، لأن ذلك كدورة فى التوحيد تعم جميع الجسد ، وأما الذنوب فإنها لا تعم ، فلذلك قلنا : إن الوضوء يطهره ، وإن اقتصر على الوضوء أجزأه ، لأنه صار طاهرا من الذنوب .

وأما أشراف الخواص : فوضوؤهم استعمال الشريعة ، وهو إقامة العبودية على الكمال ، وغسلهم مشاهدة الحقيقة ، يرون الله تعالى فيما يستعمله ، ويشهدونه فيما يصنع بهم .

وإنما قلنا : الوضوء إقامة الشريعة ، لأن الشريعة لا تستوعب الأوقات كلها فهى تجب فى وقت ولا تجب فى آخر ، كإقامة الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والوضوء مثل ذلك لا يستوعب جميع الأعضاء ، ولأن إقامة الشريعة تغنى ، كما أن الوضوء يغنى .

وأما الحقيقة : فهى مشاهدة الربوبية ، ولا غاية لها ، فتستوعب الأوقات كلها ، حتى لا يمضى على الإنسان وقت إلا وجب عليه فيه مشاهدة الحقيقة ، فهو قوله عليه السلام :

« طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

قال أبو القاسم الحكيم : هو علم الحقيقة ؛ أى مراعاة الربوبية بظهر الفضل أو العدل ، وفى الفضل شكر ، وفى العدل تضرع ، وهو كمال العبودية ، فهى تزداد كل يوم ، حتى تصير معاينة الأبصار عند الموت ، كما كانت مشاهدة عند القلوب .

والغسل مثل هذا أيضا : يستوعب الأعضاء كلها ، والذى يدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(١) .

فالجهد للهداية ، وليست الهداية للجهد ؛ وقال عز ذكره :

« إِنَّهُ لَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَيَّ العَبْدُ بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ » .

فالنوافل للمحبة ، وليست المحبة للنوافل ، وقال عز ذكره :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾(٢) .

أجمع المفسرون على أن المراد به التمثيل بالعلم .

---

(١) من الآية : ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٢) من الآية : ١٧ من سورة الرعد .

والعلم علمان : علم فى الظاهر وهو علم الشريعة ، وعلم فى السر وهو علم الحقيقة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« العِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ فى الظّاهِرِ ، وَذَلِكَ حُجّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعِلْمٌ فى البَاطِنْ ، وَذَلِكَ العِلْمُ النّافِعُ » .

فحجة الله تعالى : علم الشريعة ، لأن الحجة إنما تكون لاقامة العبودية ، والعبودية فى الدنيا . والعلم النافع هو مشاهدة الحقيقة ، لأن الحقيقة فى الدنيا والآخرة . فأولا يكون علم الحقيقة ، ثم مشاهدة الحقيقة ، ثم معاينة ذلك عند الموت .

ثم بعد فراغه من الغسل ، يلبس ثوبين ، واللباس ضربان : لباس من طريق الظاهر : وهو يستر به العورة الظاهرة . ولباس من طريق الباطن : يستر به العورة الباطنة ، قال الله تعالى :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[1] .

ثم تفسير العورة : ما يستحى منه الإنسان عند كشفه وإظهاره ، وهو على وجهين : ظاهر ، وباطن .

فالظاهر : ما يجب على الإنسان ستره من أعين الناس .

---

(١) من الآية : ٢٦ من سورة الأعراف .

والباطن : هو أن يظهر نفسه لله تعالى ، فيستحى من الله تعالى إذا ظهر منه الخلاف .

وظهور الخلاف على وجهين : سوء الخلق فيما بينه وبين الخلق ، وسوء الخلق فيما بينه وبين الحق ، فأما الذى بينه وبين الخلق فهو أن يحجب الإنسان عن مشاهدة الحقيقة ، ولا يرى صنع الله تعالى بخلقه ، ولا يشهد استعمال الله لهم ، ولكن يشهد الخلق فيما يظهر منهم فإذا حجب عن هذا ظهر منه الخلاف وسوء الخلق ، وإذا شهد الله تعالى بالحقيقة حتى رأى صنع الله تعالى فيهم ، وأنه يغيب حسه عن الخلق برؤية الحق فلا يظهر منه الخلاف ، ويظهر منه أحسن الخلق مع الخلق .

وأما الذى بينه وبين الخالق ، فهو ألا يتهم الله جل جلاله فيما يظهر ويبدى ، فإذا زالت عنه التهمة : زال عنه الخلاف وسوء الخلق ، وظهر منه الوفاق .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« مَنْ خَرَجَ يَؤُمُّ البَيْتَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِراً ، فَهُوَ مَضْمُونُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

فيجب على الإنسان ألا يتهم الله إذا كان فى مضمونه . فمن كشف له عورته الباطنة : عرف نفسه بها ، وهو سوء الخلق ، فيجب أن يفزع إلى الله تعالى ليسترها عليه ، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« اللَّهُمَّ إِنِّى أَصْبَحْتُ وَجَهْلِى مُسْتَجِيرٌ بِعِلْمِكَ ، وَأَصْبَحْتُ وَذُنُوبِى مُسْتَجِيرَةٌ بِمَغْفِرَتِكَ ، وَأَصْبَحْتُ وَفَقْرِى مُسْتَجِيرٌ بِغِنَاكَ ،

وَأَصْبَحْتُ وَذُلِّي مُسْتَجِيرٌ بِعِزِّكَ ، وَأَصْبَحْتُ وَوَجْهِيَ الفَانِي مُسْتَجِيرٌ بِوَجْهِكَ البَاقِي الدَّائِمِ » .

فالجهل عورة ، والعلم سترها ، والنفس بأخلاقها عورة ، والله سبحانه بأوصافه سترها ، فمن فزع إلى الله جل وعلا فى ستر هذه العورة فقد عرف الله تعالى ، فكان له وقاية وسترا عما سوى الله عز وجل ، وهو أن يشهد الحقيقة ، فيرى صنع الله فى كل شىء ، وهكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ » .

أى : من عرف نفسه بمعايبها وسوء أخلاقها ، فزع إلى الله عز وجل راغبا إليه فى ستر المعايب عليه ؛ فقد عرف ربه تعالى أنه وقاية له عما سواه ، وهذا هو التقوى . .

ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[1] .

والخير ما يبقى ولا يفنى ، وهو التزين بأسمائه ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ٢٦ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية : ٦٠ من سورة القصص .

وقال تعالى :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ﴾[١] .

فنور أسمائه : لباسه فى الدنيا والآخرة ؛ وفى الأخبار : إن لكل مؤمن نورا يوم القيامة يستره ، وقال تعالى :

﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾[٢] .

وهو نور المشاهدة للحقيقة ، لكل على مقدار ما سماها فى الحقيقة ، والجنة تقسم على مقدار هذه الأنوار ، قال الله جل ذكره :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[٣] .

وروى « أنَّ الصَّحابةَ ـ رضى الله عنهم ـ اخْتلفُوا فى تفسِير الدِّين ، فبَعَثُوا وَاحداً منْهُمْ إلى النَّبىِّ ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ـ يَسْأَلُهُ عَنِ الدِّين ، فقالَ ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ : حُسْنُ الْخُلُقِ ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ ، فَأَعَادُوهُ ثلاث مرَّاتٍ ، فَسَأَلُوهُ جميعاً ، فقال : حُسْنُ الْخُلُقِ ، أَلَيْسَ الصَّلَوَاتُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَالزَّكَاةُ وَصِلَةُ الأَرْحَامِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ؟ ؟ » .

---

(١) من الآية : ١٢ من سورة النحل .
(٢) من الآية : ١٢ من سورة الحديد .
(٣) من الآية : ٤٠ من سورة النور .

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن سوء الخلق هو الخلاف ، وحسن الخلق هو الوفاق ، وبالله العون والتوفيق .

تقسيم لباس المحرم :

ثم اللباس : إزار ورداء ، هذا للعامة ، فالإزار مشاهدة الحقيقة ، والرداء علم الشريعة ، وكل منهما لا يستغنى عن صاحبه ، وهذا للخاصة ، وأشراف الخواص : رداؤهم علم الصفات والأسماء ، وإزارهم فناؤهم عن رؤية هذا العلم .

ثم يكون الرداء والإزار جديدين أو غسيلين ، والجديد أفضل ، والغسيل هو أن يظهر منه مشاهدة النفس : ثم يطهره الله سبحانه وتعالى بمنه ورحمته ، والجديد هو أن يشهد الاصطفاء الأزلى الذى أجراه الله فى الأزل ، وهكذا كان أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لما شاهد الاصطفاء الأزلى برز على الأمة كلها ، ولهذا قيل : « لم يفضل أبو بكر رضى الله عنه أحداً بكثرة صيامه ولا صلاته ، وإنما برز فضله بشىء وقر فى صدره » .

والذى كان فى قلبه : هو رؤية الاصطفاء الأزلى ، ألا ترى أنه قال : « لست بخيركم من حيث أنا وأنتم ، ولكن فضلى من حيث الاصطفاء الأزلى ، كما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾[1] .

---

(١) من الآية : ٦ من سورة فصلت .

أى أن فضلى عليكم ليس بالبشرية ، ولكن فضلى من حيث الحق جل جلاله ، فنقل عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« مَا عَرَضْتُ الإسْلاَمَ عَلَى أَحَدٍ إلاّ كَانَتْ مِنْهُ نَبْوَةٌ[٣] : إلاّ أَبُو بَكْرٍ » .

وهل كان هذا إلا للاصطفاء الأزلى !!! وبالله العون .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ثم يطيب اللباس ، ويطيب نفسه .

تقسيم الطيب :

فالطيب للعامة ، هو طيب الأجساد ، والطيب للخاصة : هو طيب الأرواح ، وهو الطهارة من الدنس والذنوب والعيوب ، ومطالعة الأسباب .

وخاصة الخاصة : طيبهم بطيب الله تعالى ، وهو التزين بأسمائه وصفاته ، لأن من أسمائه أنه الطيب ، أى : طيب من المعايب والأنداد ، فكذلك هذا العبد : يتطيب من المعايب ، وأن يشهد ندا لله سبحانه ، وقال تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[١] .

---

(١) النبوة : هى عدم الانقياد ، ويقال فى المثل « لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة » . وقال الشاعر :

أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلى لا تنبو عليك مضاربه

(٢) من الآية : ٣١ من سورة الأعراف .

فزينة الخاصة طيب الله ، يدل عليه قوله تعالى :

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(٢) .

فزينة الله تعالى : أسماؤه وصفاته التى أظهر لعباده . وجل ربنا أن يحتاج إلى زينة ، والطيبات من الرزق : مشاهدة أنوار الأسماء والصفات وإنما سمى رزقا : لأنه أوصل إلينا من طريق السماء والعلم ، كما أن الرزق أوصل إلينا بالأسباب ، وسمى « طيبات » لأنها تطيب الإنسان ؛ وقوله تعالى :

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٣) .

وروى فى الحديث عن المصطفى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ فى الْجَنَّةِ ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ » .

فالمؤمنون يتلذذون بتلك الأنفاس تلذذا يغرق فيه نعيم أهل الجنة ، كل على مقدار ما كان له فى الدنيا ، فبعضهم يكرم بهذا الطيب فى الدنيا قبل ورود ملك الموت ، لأنهم عاينوا العدل فى كل نفس وفى كل حركة ، فهم يزدادون صفوة يوم القيامة ، قال الله تعالى :

---

(١) من الآية : ٣٢ من سورة الأعراف .
(٢) نفس الآية السابقة .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[1] . . . الآية .

فمن يعرف قدر هذا الطيب ؟؟ وقال جل جلاله :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾[2] .

وبعضهم يقال لهم عند رجوعهم :

﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[3] .

لأنهم لم يعاينوا فى الدنيا أهوال العدل فى كل لحظة وحركة ، فيطيبون من وقت أهوال الموت إلى وقت دخول الجنة ، فيقال لهم حينئذ : (طبتم) .

وكان قول عائشة — رضى الله عنها — « طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف » : إشارة إلى الطيب قبل الموت فى الدنيا ، لأنه إذا أحرم فكأنه قد مات ، ولحله قبل أن يطوف : إشارة إلى الطيب فى الآخرة عند الضيافة ، لأنه يكون لهم ضيافة قبل دخول الجنة ، كما تكون قبل الطواف ، روى فى الخبر :

---

(١) من الآية : ٩٧ من سورة النحل .
(٢) من الآية : ٣٢ من سورة النحل .
(٣) من الآية : ٧٣ من سورة الزمر .

« أنه يؤتى لهم بالسمكة التى عليها الأرض ، فيأكلون ذلك ثم يدخلون الجنة » .

ويقول عند اللباس ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى كَسَانِى مَا أُدَارِى بِهِ عَوْرَتِى ، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِى النَّاسِ » .

ثم يصلى ركعتين قبل الإحرام ، لأن الصلاة عماد الدين ، هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، والحج عماد الإسلام ، هكذا قال النبى صلى الله وسلم ، فيبدأ بعماد الإيمان : ثم يثنى بعماد الإسلام ، فالإيمان والإسلام قرينان شكلان ، كل واحد منهما عون صاحبه ، وأحدهما داخل فى الآخر ، والذى يشتمل عليهما (الدين) قال الله جل ذكره :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾[1] .

تفسير الدين :

وتفسير الدين : إظهار الحق وتحقيقه ، قال الله عز وجل :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾[1] . الآية .

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآيتان : ١٧ ، ١٨ من سورة الانفطار .

فإذا كشف لسره فى الدنيا الحقيقة ، لم يملك لنفسه شيئاً ، وشاهد الأمر لله تعالى ، فهو على الدين ثابت ، وليوم الدين مشاهد .

وقال عليه السلام : عن الله تبارك وتعالى :

« إِنَّ هٰذَا دِينٌ ٱرْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِى ، وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلاَّ السَّخَاءُ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

فالسخاء : تسليم النفس إلى الله تعالى . وحسن الخلق : ترك المنازعة فى الربوبية ، وقال عليه السلام :

« أَلاَ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ لِلّٰهِ وَلِكِتَابِهِ . . . . » الحديث .

قال الصادق : معنى النصيحة ترك المنازعة مع الله تعالى ، ووصفه بصفته ، فإذا تركت المنازعة فى الربوبية ، وسلمت الحكم إلى الله عز وجل فقد نصحت ، وكذلك إذا لم تنازع الأئمة ، والكتب ، ولم تنازع عامة المؤمنين : فقد نصحت . فإظهار الحق من طريق القول والإقرار ، وهو الإيمان فإنه ما لم يظهر باللسان فإنه لا يصير مؤمنا ـ وإن أضمره فى القلب ـ وتحقيقه من طريق الأعمال وهو الإسلام ، ولا يجوز أن نقول إنهما : غيران ، وإنما هما نوران ، شكلان ، متقاربان ، دليله : ما أجاب به المصطفى صلى الله عليه وسلم سؤال جبريل عليه السلام : « ما الإسلام وما الإيمان » ... الخبر إلى آخره .

فالشريعة كلها متعاونة ، ليست بمتغايرة ، وإن اختلفت أحكامها ، ومثال الإيمان والإسلام : ركعتى الفجر ، إذا فسدت إحداهما فسدت

الأخرى ، وكل واحدة معاونة للأخرى ، وإن كانت إحداهما أعم ، لأن فى الركعة الأولى الافتتاح ، وليس فى الثانية ذلك ، وفى الثانية ، قعود وخروج من الصلاة ، وليس فى الأولى ذلك ، ثم ليس يجوز أن يكون بينهما مغايرة . ولكن كل واحدة منهما مكملة وعون للأخرى وكذلك الإيمان والإسلام . وقوله عز وجل :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[1].

ليس يدل على وقوع المغايرة ، لأن الله خص أحدهما عن الآخر ، إذ هما متداخلان ، إلا أنه سبحانه علم ما فى ضمائرهم ، فاستثنى ضمائرهم ، وأبقى ظواهرهم ، فقال : « قل لم تؤمنوا » ، أى لم تعتقدوا الإيمان فى القلوب ، ولكن قولوا « أسلمنا » ، وليس لنا علم ضمائرهم ، وإنما لنا مراعاة ظواهرهم ، والله المرشد .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ثم يلبى ، والتلبية هى الإقامة من قولهم : ألب بالمكان إذا أقام به ، ومعنى التلبية : إظهار الإجابة لما سبق فى الأزل ، أى الإقامة على تلك الإجابة .

فالعامة يظهرون التلبية إجابة من أنفسهم لله تعالى ، لما سبق من دعاء إبراهيم عليه السلام ، وبعضهم يظهرون بهذه التلبية ما سبق لهم فى

---

(١) من الآية : ١٤ من سورة الحجرات .

أصلاب آبائهم ، وبعضهم يظهرون ما ظهر فى أصلاب الآباء من الله عز وجل : أن الله تعالى هو الذى أظهرهم ، يظهرون الظهور بإظهاره لهم إجابة لما سبق لهم فى الأزل . وظهر فى الأبد ، وهم أهل الصفا .

وكل تظهر منه التلبية على قدر ما أجاب فى صلب أبيه ، دليله : ما روى عن المصطفى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« لَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - مِنْ رَفْعِ القَوَاعِدِ : أَوْحَى اللهُ - عز وجل - إِلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى الْحَجِّ ، فَقَامَ عَلَى المَقَامِ ، وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ تعالى بَنَى بَيْتاً فَحُجُّوهُ وَأَجِيبُوهُ ، فَقَالُوا فى أَصْلَابِ آبَائِهِمْ : أَجَبْنَا رَبَّنَا ، لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، فَكُلُّ مَنْ حَجَّ فَقَدْ أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - عَلَى قَدْرِ مَا لَبَّى » .

هذا كله فى ذكر الخبر . ولهذا قال عليه السلام : « لا ضرورة فى الإسلام » . يعنى : أنهم لا ينشئون التلبية من أنفسهم ، ولكنهم أجابوا فى أصلاب آبائهم قبل خروجهم إلى الدنيا ، ثم لما خرجوا إلى الدنيا ، قبل أن يأتوا بأبدانهم — كانوا شاهدين على إقرارهم ، معتقدين الإجابة من وقت البلوغ ، إلى وقت وصولهم إلى البيت ، فلهذا قال عليه السلام « لا ضرورة فى الإسلام » .

ولهذا قال محمد بن الحسن : لو أغمى عليه فلبى غيره محله جاز عند أبى حنيفة — رحمه الله — وإنما جاز : لأنه أمضى لتلك التلبية التى سبقت غير مرة ، وكذلك فى الطواف والوقوف بعرفات ، إذا طيف به

أو وقف به بعرفات : جاز ذلك ، لأنه أمضى فيمن أشهده الله تعالى على ما سبق له فى الأزل ، وما يظهر له فى الأبد ، وقرب بسره إلى الله تعالى.

وأما المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فإنه كان قدوة للخلق ، وسهل عليه ذلك ، ألا ترى ما روى عن عبد الله بن مسعود[١] — رضى الله عنه — أنه لبى بعرفات ، فأنكر الناس ذلك ، فتفحصوا[٢] ، فإذا هو عبد الله فسكتوا ، وإنما أنكروا ذلك لأن الإنسان يقرب بسره إلى الله تعالى عند الوقوف ، ألا ترى أن بعض الصحابة كانوا يلبون ، وبعضهم كانوا يكبرون ، فما عاب بعضهم على بعض، لأن منهم من تقرب بسره إلى الله فيترك التلبية ، وبعضهم يلبى إذا كان يدرى حالته لو كان إماما يقتدى به ، فيجرى عند القرب على لسانهم : الله أكبر ، الله أكبر أى : الله أكبر من أن يظهر عليه غيره ، ولهذا يقطعون التلبية عند أول حصاة يرمون بها جمرة العقبة ، فإنهم يقربون بسرهم عند هذا .

قال أبو حنيفة : إنه إذا كبر ، أو هلل ، أو سبح : يكون محرما . ثم

---

(١) هو الصحابى الجليل : أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ، صحابى ابن صحابية ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر ، وهو صاحب نعل رسول الله (ص) شهدله الرسول بالجنة . نزل الكوفة فى آخر حياته وتوفى بها سنة ٣٢ هـ .

(٢) التفحص : هو المبالغة فى الفحص ، والفحص هو : الاستقصاء والبحث عن الأمر لمعرفة حقيقته وكنهه ، ويقال: عليك بالفحص عن سر هذا الحديث ، وفلان بحاث عن الأسرار فحاص عنها .

يلبي كلما علا شرفا[١] ، أو هبط واديا .

ما يشهده العوام والخواص فى التلبية :

والعوام : يشهدون الأمكنة الظاهرة ، فقولهم هذا الذكر عند كل خفض ورفع : يكون اشتغالهم بذكر الله تعالى ، دون رؤية الأمكنة الظاهرة .

وأما الخواص : فإنهم إذا شهدوا أخلاق أنفسهم : ذكروا الله تعالى وإذا شهدوا الربوبية : ذكروا الله تعالى ، ليكون اشتغالهم فى الحالين جميعاً بمحول الأحوال ، لا بالأحوال ،

وخاص الخواص : لا يشهدون أخلاق أنفسهم ، ولكن يشهدون فضل الله تعالى وعدله . فإذا استقبلهم بفضله كبروا ، وإذا استقبلهم بعدله كبروا ، وذكروا الله جل جلاله ، فهذا لهم فى الخفض والرفع .

وأشراف الخواص : يشهدون عند كل خفض ورفع : أحديته وصمديته ، فيكبرون عند مشاهدتهم ذلك .

ومعنى التكبير : أن الله أكبر من أن يكون له شريك فى إبداء فضله وعدله . وأكبر من أن يكون له شريك فى أحديته وصمديته .

---

(١) هو المكان العالى ، المرتفع لأنه يشرف على ما تحته .

صفة التلبية ومعناها :

ثم التلبية أن يقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ».

فقوله ؛ « اللهم » اعتورته [1] التلبيتان ، والتلبية : إظهار العبودية ، وللعبودية قبل وبعد ، وابتداء وانتهاء . وترتيب وتوقيت .

ولفظ اللهم : فيه ذكر جميع الأسماء كلها ، وذكر الخلق وما يبدو منهم ، لأن الخلق قيامهم بالله تعالى : بأسمائه وصفاته . فدخلت التلبيتان فى « اللهم » لأن هذا دعاء لله جل وعلا بجميع ما ربى به الخلق .

والتلبيتان من تربية الله عز وجل ، يقول العبد : اللهم ، اعتراف بأنك ربيتنى بهاتين التلبيتين ، فيشهد الحق بهاتين التلبيتين .

وقوله : « لا شريك لك » : اعتورته التلبيتان بنفى الشركاء فى ربوبيته .

ففى التلبية الأولى ، مشاهدة الحق ، وفى الثانية نفى الشركاء ، فمن شهد هذا فقلبه بنعمة الله تعالى : ابتداء وانتهاء ، وهو قوله : «إن الحمد والنعمة لك ، فالعامة : يشهدون حمد أنفسهم ونعمتهم لله عز وجل .

والخواص : يشهدون حمده الذى حمد نفسه به فى الأزل ، وأجراه فى الخلق فى الأبد ، ويشهدون نعمته التى أسبغها على عباده ، وهى النعمة الظاهرة والباطنة ، قال الله تعالى :

---

(١) اعتورته : أى تداولته ، كما يقال : اعتور القوم الشىء : تداولوه فيما بينهم .

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(١) .

وقوله : « والملك لا شريك لك » ، فالملك إظهار صنعه ، وإظهار نعمه على صنعه : اعتراف من العبد أنه لا شريك له فى خلق جسده وملكه ، ولا شريك له فيما أبدى من النعم الظاهرة والباطنة ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« أَفْضَلُ الْحَجِّ : العَجُّ وَالثَّجُّ » .

فالعج : رفع الأصوات ، فالخواص يرفعون أصواتهم بالحق ، لامن حيث هم ، فيسمع الثقلان والخلق كلهم تلبيتهم .

وأما الثج : فهو النحر ، فالخواص ينحرون أهواءهم ومناهم وحولهم وقوتهم مكان نحر البدن .

قال أبو عبد الله : ثم الابتداء بالطواف واستلام الحجر ، فبعضهم : يقبلون الحجر تزودا من غائب ، لأن الحجر من الجنة . وهذا للعامة .

وأهل الصفا : يشهدون بالقبلة المسألة السابقة ، وهو الميثاق الذى أودع الله تعالى الحجر وهو قوله عز وجل :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ﴾(١) .

---

(١) من الآية : ٢٠ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ١٧٢ من سورة الأعراف .

فبعضهم سبقت لهم الشقاوة والخذلان ، وبعضهم سبقت لهم السعادة والتوفيق (فأهل الصفا) يشهدون المشيئة المتمكنة فيه عند التقبيل ، ألا ترى إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين قبل الحجر :

« هَا هُنَا تُسْكَبُ العَبَرَاتُ » وَبَكَى ..

لأن الإنسان قد غيب عنه ما جرى له فى المشيئة ، ولهذا قال عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — « أما إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك» ولم يكن خفى على عمر — رضى الله عنه — ما شهده على بن أبى طالب رضى الله عنه — حيث قال : « يضر وينفع » ولكنه شهد الحقيقة فى الضر والنفع من الله سبحانه وتعالى ، لأنه كم من كافر قبله ولم ينفعه ، فغاب عمر — رضى الله عنه — عن مشاهدة الحجر ، واتصل سره بالحق جل وعز ، فشهد المشيئة النافذة السابقة ، فلهذا قال : «إنك حجر لاتضر ولا تنفع » ، ثم قال : « لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » .

معنى هذا : أن الإنسان — وإن بلغ الغاية — فإنه يجب عليه أن يغض عن مشاهدته ، ويجعل مشاهدته تحت مشاهدة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — وتحت مشاهدة أصحابه — رضى الله عنهم — ويجعل مشاهدتهم أمامه . لأن الأسرار كلها والمشاهدات كلها ، تحت مشاهدته

صلى الله عليه وسلم ، لأنه سقف الأسرار ، والعرش سقف الجنة للأجساد .

ألا ترى أن عمر — رضى الله عنه — مع كمال حاله : أعرض عما شهد فى سره فى الحقيقة ، وجعل سره تحت سر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهكذا يجب على المؤمن ، وإن شهد أعلى الحقائق فى المناسك : يحمد الله تعالى على ما شهد ، وإن تغيب عن ذلك . ويجعل مشاهدته تحت مشاهدة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

والذى قال عمر — رضى الله عنه — حين أتى بامرأة وأمر برجمها فقال معاذ — رضى الله عنه — « إن يكن لك سبيل عليها ، فلا سبيل لك على ما فى بطنها » .

فقال عمر : رضى الله « لولا معاذ لهلك عمر » . ليس أنه خفى على عمر — رضى الله عنه — ولكنه أراد أن يمتحنهم ، كيف بهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ألا ترى أنه قال : « الحمد لله الذى جعلنى فى قوم : إن زغت قربونى » ، فكل ما يرد عن عمر — رضى الله عنه — من الأخبار على هذا السنن : فهو محمول على فائدة أرادها ، لا أنه جهل حكم ذلك .

ثم العجب من القرامطة(1) : حيث أرادوا أن يشرفوا من طريق

---

(١) وقعت هذه الحادثة المثيرة فى سنة ٣١٧ هـ حينما هجم أبو طاهر القرمطى =

الحواس ، على الميثاق الذى أودعه الله تعالى فى الحجر . وهل يدرك وديعة الله تعالى من طريق الحواس ؟ ؟ ثم أعجب من هذا : من يقول « إن كلام الله — عز وجل — ليس فى المصاحف ، ونسوا قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾(٢) .

أرادوا أن يدركوا ما أكنه الله — عز ذكره — فى الكتاب بأفهامهم وعقولهم ، فكيف يمكنهم أن يدركوا النور الذى ليس بمخلوق بالعقل المخلوق ؟؟ وقد عجزوا أن يدركوا الروح المخلوق أو يحدوها ، فهم عن أن يدركوا النور الذى ليس بمخلوق ، بالعقل الذى هو مخلوق أبعد ، وإنما يدركه المطهرون ، لأنهم طهروا عن الاعتماد على الأدوات والآلات ، فيدركونه لا من حيث العقل والفهم . ولكن من حيث التبرى من الحول والقوة فى العقل والفهم .

على مكة ، وقتل وسبى . ثم اقتلع الحجر الأسود ، وحمله معه إلى الأحساء ، وقد تبرأ عبيد الله المهدى من فعل أبى طاهر ومن أخذه الحجر الأسود وقتله الحجيج فبعث إليه برد الحجر الأسود ، ولكنه لم يستجب وبقى الحجر فى هجر ٢٢ سنة ، وأخيرا نقل الحجر الأسود إلى الكوفة عام سنة ٣٣٩ هـ ، ويلاحظ أن بعض المؤرخين يعزى اقتلاع القرامطة للحجر الأسود أنهم حاولوا بذلك إبطال الحج وهدم الكعبة وإظهار عبادة النار ، ولكن يلاحظ أن المسألة سياسية بحتة كان مقصودا بها محاربة عقيدة أهل السنة .

(٢) الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة الواقعة .

وقال عز ذكره : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[١] .

فيفزع إلى الله تعالى : حتى يبصره . فيرى ذلك النور بنوره ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وهو نور التوحيد ، لأن النور الذى فى السر إذا وجد الخلوص من ظلمات النفس : تعدى إلى الإنسانية ، فبذلك النور يصيب الحقائق ، وهو ما قال عيسى صلى الله عليه وسلم : « اللهم أرنى الأشياء كما هى » وقد قال الله عز وجل :

﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[٢] .

أى من ظلمات النفس إلى نور التوحيد ، فيرى بنور الإجلال لله عز وجل : تجلى الله عز وجل له فى كل شىء ، لأن الإنسان منه بدأ وإليه يعود ، وليس ينظر إلى الأشياء : شهوة وتلذذا وتنعما ، وإنما ينظر إليها بالحق فيشهدها به وله ومنه وإليه :

﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾[٣] .

ثم النور نوران : نور العقل ، وهو مخلوق ؛ ونور التوحيد ،

---

(١) الآية : ٧٩ من سورة الواقعة .

(٢) من الآية : ٤٣ من سورة الأحزاب .

(٣) من الآية : ٥٣ من سورة الشورى .

ويدرك به النور الذى ليس بمخلوق ، وهو النور المكنون فى الكتاب ، وهذا النور هو إعلام الله من طريق السر وأنوار الوحى : بأنه فى الكتاب مكنون .

فأهل الصفا : تركوا أفهامهم وعقولهم للعلم الذى أخبر الله فى الكتاب ، فالعقل السليم النقى ينقاد لعلم الله عز وجل ، والعقل السقيم هو الذى يعرض عن العلم والخير ويستبد بنفسه ، لأن العقل جعل آلة لقبول ما يلقى الله عز وجل إليه ، ولم يجعل إليه الاستبداد .

كيفية الطواف ومشاهده :

وإنما كانت بداية الطواف باستلام الحجر : لأن الطواف أفعال(١) أن يستلم الحجر ، ليشهد المشيئة التى ظهرت منها الأفعال .

والطواف سبعة أشواط ، باستعمال السبعة الأعضاء فيه ، فبعضهم يشهدون بالأشواط السبع : الأرضين السبع ، والسموات السبع ، وسبعة أبواب الجنة ، لأن الثامن زيد لأجل أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » .

(١) يوجد هنا بياض فى الأصل .

يعنى : سبعة أبواب الجنة ، يشهد بقلبه ، ويطوف فى هذا الملكوت بأنه لا مالك له إلا الله الواحد القهار ، فيغيب سره عن الملك إلى المالك فإنه جعل الملك طريقا وسبيلا إلى المالك فيلوذ بسره : بربه تعالى .

وروى أن رجلا كلم ابن عمر — رضى الله عنه — فى الطواف : فلم يجبه ، فلما فرغ من الطواف قال : « إنا كنا نترائى الله عز وجل » .

وطواف الروح بالعرش ، لأنها من نور العرش خلقت ، وأما من رقى بسره عن النفس والقلب والروح ، فإنه لايشاهد الكونين ، ولكن يشاهد الملكوت الذى ليس بمخلوق ، وهو أسماء الله وصفاته ، فيشهد بسره ، ويطوف فى هذا الملكوت ، فلا يرى له فى صفاته ، ولا أسمائه : شريكا فى الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

الرمل فى الأشواط وكيفية :

ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ، لأن الإنسان يتبختر فى افتخار والافتخار إنما يكون للقلب والروح والنفس : لأنها مخلوقة ، والفخر من صفات المخلوق ، تتبختر فى الشوط الأول : نفسه ، وفى الثانى : قلبه ، وفى الثالث : روحه من حيث أن الله تعالى أكرمها بالطواف حول بيته ، لأنه روى فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال :

« بَيْنَ البَيْتِ وَالمَقَامِ : رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ » .

ومن كان فى رياض الجنة : يجب أن يفتخر ، ومن كان يشهد هذا فحاله التبختر .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج إلى مكة وأصحابه مشاة للعمرة ، فقال لهم :

« شُدُّوا أَوْسَاطَكُمْ بِالأُزُرِ ، وَمَشَّى خَلْطَ الهَرْوَلَةِ » .

وهذا التهيج : كان فى سره ، وروى أن عامة مشيه صلى الله عليه وسلم كأنه يمشى فى صبب[1] .

وإذا تعدى الإنسان هذه الأشواط الثلاثة ، فقد جاوز : النفس والقلب والروح ، وغاب عن صفات الخلق ، واتصل بسره بالحق ؛ فسكن وبهت ، وقد قال عز ذكره :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وهذا إذا نظر بقلبه إلى ربه — جل جلاله — ضرعا وملقا[3] ، فأما إذا التفت بسره إلى غيره : فهو محروم من حظ السكينة ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الصبب : هو ما انحدر من الأرض ، ويقال : مشوا فى صبب أى حدور ، وفى الحديث « كأنما يمشى فى صبب » .

(٢) من الآية : ٤ من سورة الفتح .

(٣) أى : توددا إليه وتلطفا .

« أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ » .

يعنى : أن الفخر لمن قام بصفاته ، وأنا قائم بصفات الحق وبه ، ألا ترى أنه قال عليه السلام :

« بِكَ أَصُولُ ، وَبِكَ أَجُولُ ، اللّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْتُ ، وَبِكَ أُمْسِي ، وَلاَ فَخْرَ لِي » .

إذ الفخر من صفات الحق جل وعلا ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه فى الرملان محاولا أن ينفى الفخر عن نفسه :

« لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ما فعلته » فعمر رضى الله عنه غاب عن صفات نفسه ومشاهدته واتصل سره بالحق، ولم يشهد الفخر . فتابع المصطفى صلى الله عليه وسلم

ويسار الإنسان يكون إلى الكعبة ، ويمينه إلى المقام ، لأن اليسار إشارة إلى النفس ، والكعبة جعلت معلما للنفس ، واليمين إشارة إلى القلب .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« مَنْ تَصَدَّقَ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ » .

يعنى يتصدق بقلبه : يخفيها عن نفسه ، وفيها إخفاء ، ومن

هنا كرهنا النظر ، فيجب أن يكون القلب إلى المقام ، لأن الأنوار التى فى القلب ، هى الأنوار التى وصفها الله عز وجل فى قصة إبراهيم عليه السلام ، والقلب معلمه تلك الأنوار ، ويستقبل بالطواف ركن الشام وبعضها قريب منه ، والبيت — على ما ذكر فى الأخبار — يهتش نوره إلى إبراهيم عليه السلام .

فيرمل(الحاج) ثم يهتش إلى الحق ، فيبصر فيسكن ، ثم يجىء فيصلى ركعتين فى مقام إبراهيم عليه السلام .

[لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلى ﴾(١)] .

وقد قرىء : بفتح الميم وضمها ، فمن فتحها ، فإنما يريد بها المكان ، وهذا خاص بالعامة ، لأنهم لا يجاورون إلا المكان ، فيشهدون منه ذلك ومن قرأ بالضم : يريد به صفة إبراهيم عليه السلام ومقامه ، بأن قطع سره عن حاجات نفسه ، وصار اتصاله بالحق ، ألا ترى ماقاله لجبريل عليه السلام : « أما إليك فلا ، حسبى الذى لم يزل حسبى » ، أى حسبى حكمه الذى حكم فى الأزل ، فرضى بحكمه وسلم نفسه ، ولم يرد إلا خلاص منيته ، فلما قطع سره عن حاجات نفسه ومنيتها ، قال عز ذكره :

﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾(٢) .

---

(١) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٦٩ من سورة الأنبياء .

بين مقام إبراهيم ومقام محمد عليهما السلام :

روى فى الخبر : « أنه لم يكن لإبراهيم عليه السلام عيش فى الدنيا أطيب من ذلك الوقت » وكذلك من سلم نفسه لحكمه ، يكون أبدا فى أطيب عيشه ، قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[1] .

فهذه النار المخلوقة صيرت بردا وسلاما : عند رؤية الحق جل ذكر وقطع النظر عن غيره . فيأتمنك بنار السر إذا هاجت لأجله ، كيف تكون بنعم السر فيها ! ! .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« سَيَكُونُ رِجَالٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى يَقِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ » .

وأما مقام محمد صلى الله عليه وسلم : فهو المقام المحمود ، تكل الألسن عن وصف ذلك المقام ، ونذكر من ذلك ذرة ، وهو القيام به والحياة به ، والغناء عن رؤية ما فى الأزل والأبد . قال عليه السلام :

« يَأْتِي عَلَيَّ وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِي مِنْبَرِي غَيْرُ اللهِ تَعَالَى » .

وهو شاهد القدرة دون المقدور . لذلك قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) من الآية : ٦٩ من سورة النحل .

« لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ » . شاهد القدرة .

ثم يعود إلى الحجر فيقبله : شكراً لما أنعم الله عليه من إتباع سنة إبراهيم عليه السلام وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشهد ذلك فى المشيئة الأزلية ، وإرادته الأزلية ، ويرى المنة من الله تعالى عليه ؛ إذ جعله من جملة المتبعين لهما ، وبالله العون على متابعتهما .

السعى بين الصفا والمروة وما فيهما من معان :

قال أبو عبد الله : ثم يخرج من باب الصفا إلى الصفا ، ويشهد عند الخروج من باب الصفا : الله تعالى ، لاصنعه ، فيقف مستقبل الكعبة ويشهد فى الصفا ما جرى فى الأزل ، لأن الله تعالى كان ولا مكان ، فيستقر قلبه ، ويشهد سره ما أجرى له الحق تعالى فى الأزل ، ويتضرع إلى الله سبحانه ، لأنه قد غيب عنه ذلك ، فلا يدرى أنه من المقبولين أم من المطرودين ، ولهذا يجب أن يمشى على هينته ، حتى يأتى بطن الوادى ، لأنه لم يشاهد ما هيأ له تعالى فى الأزل وغيب عنه ، فيأخذ من ذلك : الهيبة والسكون ، إذ ليس للعبد فى ذلك صنع ، ويمشى على هينته متفكراً ، متذكراً ، حسن الظن بربه تعالى ، عساه جرت له السعادة فى الأزل ، فإنه تعالى يقول :

« أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى ، فَلْيَظُنَّ بِى مَا شَاءَ » .

وهذا إذا كان عند الله ، فأما إذا كان عند هواه ، فليرجى له أيضا وقد قال القائل :

أردناكم صرفا فإذ قد مزجتم فبعدا وسحقا لا نقيم لكم وزنا

فإذا بلغ بطن الوادى . . . .[1] لأنه بعد ذلك شاهد الأزمان ، فاتجه إليه الأمر والنهى ، لما خرج إلى الأوقات ، فيحتاج إلى السعى والتكلف ، لأن العبودية على هذا بنيت ، ثم يمشى على هينته حتى يأتى المروة ، لأنه يشهد فى المروة ما يظهر الله تعالى فى الأبد ، وذلك علم مغيب عنه ، فيتضرع إلى الله تعالى ، ويدعو ويذكر ، كالمبهوت الواله ، حسن الظن بربه ، على الهيبة والسكون ، والذى يدل على ذلك : قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾[2] .

ولم يذكر ذلك فى سائر الأركان ، لأن شعور القلب بما جرى فى الأزل ، وما يظهر فى الأبد ، إنما يكون عند الوقوف بالصفا والمروة .

ولهذا قالت « عائشة » رضى الله عنها : « إن لم يسع بين الصفا والمروة لم يتم حجه » ، لأن الحج لا يتم إلا بأن يظهر ما جرى فى الأزل وما يظهر فى الأبد ، وأن يقيم العبودية فيما بين ذلك ، إذ الحج « عماد الإسلام » هكذا روى فى الحديث : « أن الحج عماد الإسلام» والإسلام أن يشهد الأزلية ، ويشهد الأبدية ، ويقيم بين ذلك : العبودية ، يشهد

---

(١) يوجد مكان النقط فراغ فى الأصل .
(٢) من الآية : ١٥٨ من سورة البقرة .

ما غيب عنه فى الأزل ، وما غيب عنه فى الأبد ، ثم يبذل مجهوده فى إقامة الشريعة ، ويرى آثار ما غيب عنه ، فإن كان أكثر الآثار موافقاً لله تعالى : فهو علم السعادة ، وإن كان أكثرها المخالفة والثبات على ذلك (فهو علم الشقاوة) .

ولقد ابتدأ بالطواف أولا ، ثم بالسعى بينهما : لأن الطواف حول البيت ، والبيت معلم الله تعالى ، فأولا : يلزمه الإقرار بربه تعالى ، ثم مشاهدة الأزل والأبد ، وإقامة العبودية فيما بين ذلك ، يدل على هذا : أنه إذا طاف بالبيت فليس للسعى بين الصفا والمروة وقت معلوم معين ، متى ما أتى به لأنه أتى به بعد الطواف ، كما أنه جعل له بعد الإقرار بالله تعالى فى مشاهدة الأزل والأبد سر آخر ، حتى إذا ذكر فى وقت من الأوقات بعد الإقرار ، بالله تعالى : جعل كأنه كان على ذلك منذ ظهر منه الإقرار لكن كله على المراتب . والله يختص برحمته من يشاء .

ومعنى آخر : الصفا : مشاهدة الحقيقة ، والمروة علم الشريعة ، ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ » .

فالبداية بالحقيقة ، ثم بالشريعة ، لأن الشريعة لاتصح إلا بالحقيقة ، لأنه ما لم يأت بكلمة التقوى : لاتقبل منه الطاعة ، ألا ترى أنه لو بدأ بالمروة : لم يفد وقوفه ، ما لم يبدأ بالصفا ، كما أن الإنسان ما لم يؤمن بالله — عز وجل — لم تكن طاعته طاعة ، ولا يكون مخاطبا بالشريعة

وهذا طريق المحو والإثبات ، فالمحو : هو الصفا والإثبات هو المروة ، لأنه فى المحو بغير إثبات : إسقاط العبودية ، وفى الإثبات بغير محو : إبطال الربوبية ، وفى مجموعهما طريق الحق والحقيقة .

ومعنى آخر : الصفا حكم الله تعالى فى العبد من حيث المشيئة . إذ ليس فى المشيئة للعبد صنعة ؛ والمروة حكمه بالعبد من حيث العبودية وهو إقامة الأمر والنهى .

وروى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يدعو :

« رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ، وَتَجَاوَزْ عَمَّا تَعْلَمْ ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الأَعَزُّ الأَكْرَمْ » .

فقوله : « رب اغفر » ، معناه : استر صفاتى بصفاتك ، لأن المغفرة من طريق الفقه هى الستر ، والرحمة والمغفرة من صفات الله تعالى ، تستر عبده بفضله ورحمته .

وقوله : « ارحم » ، معناه : اجمعنى من التفرقة حتى لا يتفرق قلبي فينظر إلى غيرك ، ولهذا سمى الرحيم ، لأنه يجمع بين القلوب .

وقوله عليه السلام : « وتجاوز عما تعلم » . يعنى : تجاوز عما جرى فى علمك قبل أن تبتلينى به ، وما ابتليت به ولا علم لى به ؛ وقال عز ذكره :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[١] .

وقوله : « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم » ، إشارة إلى حكم الله تعالى بالعبد ، من حيث العبودية .

ومعنى آخر : الصفا فضل الله تعالى فى الأزل ، والمروة فضله فى الأبد ، وبينهما السعى وهو فى العبودية فى إقامة الأمر والنهى ، كما قال ابن عطاء : « فضل يزول إلى فضل » .

ومعنى آخر : الصفا هو إقامة العبودية فيما بينك وبين مولاك ، والمروة إقامة المروءة فيما بينك وبين العباد ، لأن فى الصفا إقبالا على الله ، وفى المروة إدبارا ، ففى الإقبال إلى الصفا : مشاهدة الحق ، وفى السعى إلى المروة مشاهدة الخلق بالحق .

ومعنى آخر : الصفا مشاهدة الأحدية ، والمروة مشاهدة الصمدية ، وأنشد « الشبلى »[٢] رحمه الله :

قد قضى حجه فأوفى الذماما حين ألقى قياده والزماما
لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بيته والمقاما

---

(١) من الآية : ٢ من سورة الفتح .
(٢) هو أبو بكر بن جحدر الشبلى ـ رضى الله عنه ـ خراسانى الأصل ، بغدادى المولد والمنشأ ، صحب الجنيد ، وتفقه على مذهب الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ ، توفى سنة ٣٣٤ هـ .

وطوافى إجالة السر فيه   وهو ركنى إذا أردت استلاما
كيف أبغيه بالمشاعر ربا   وأرى المروتين منه إماما
وهو فى السر بحثنا منه عنه   تتلالا شهوده أعلاما

قال محمد الترمذى : ثم يخرج إلى منى ، فيصلى الصلوات الخمس بها ، ومنى موضع تمنى فيه أبونا آدم — عليه السلام — الجنة ، وهو موضع الضيافة .

والضيافة نوعان :

(ا) نوع للقلوب والأرواح .

(ب) ونوع للأبدان والأجسام .

فأوله : ضيافة الأرواح ، وهى الصلاة ، لأنها عرس الموحدين ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« جُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِى فى الصَّلَاةِ » .

وكيف لا تكون عرسا ؟ ؟ وفيها المناجاة مع الأحد الصمد ، وهو يوازى نعيم الدنيا والآخرة ، فطوبى لمن كشف له حظ منها .

ثم يوم النحر ، ويوم الزيارة : ضيافة الأرواح والأبدان ، قال عز ذكره :

« يا معشر أوليائى تنعموا بذكرى » .

فإذا ظهر العبد فى الوقوفين جميعا — النحر والحلق — فحينئذ : الضيافه للأرواح والأبدان .

ومعنى آخر : إن من شأن الملوك إذا قبلوا أحدا ، فإنهم يعلمونه ما يتصل بآداب الملوك ، من إقامة الخدمة ، وغير ذلك خارج الدار بالبعد (أن بعد فترة من الوقت) ، وقلما يكون ذلك فى الوقت .

قال محمد بن الفضل البلخى[1] — رحمه الله — : العارف عند التجلى شغله بالذكر ، لا يجوز له إلا ذلك . وعند الاستتار والعود إلى صفاته : يكون شغله : إقامة العبادات والمروءات ، فكذلك العبد فى باب الحج أيضا ، لما أذن له بالدخول ، فطاف طواف التحية : أمر بالخروج إلى منى ، إلزاما له ليقيم بها آداب العبودية ، ويأتى بشرائط الأمر والنهى .

والصلوات الخمس تشتمل على جميع العبادات ، هذا كما روى عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« العَبْدُ إِذَا تَابَ كُشِفَ عَنْ سِرِّهِ حَتَّى يَشْهَدَ الرُّوحَ وَالكَرَامَاتِ ، وَإِذَا وَجَدَ فى قَلْبِهِ الرُّوحَ وَالرَّاحَةَ أَمَرَ اللهُ جِبْرِيلَ — عليه السلام — أنْ يَمْسَحَ عَلَى قَلْبِهِ ، فَلاَ يَجِدُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ يَجِدُ مِنْ قَبْلُ فى قَلْبِهِ » .

---

(١) هو أبو عبد الله : محمد بن الفضل البلخى — رضى الله عنه — أصله من بلخ لكن أخرج منها بسبب المذهب ، وجاء إلى سمرقند واستوطنها ، ومات بها سنة ٣١٩ هـ ، وكان من كبار مشايخ خراسان .

وهذا من الله إكرام ، استعمل العبد فى طلب ما وجده ، ويبذل فى ذلك وسعه ومجهوده ، حتى يصل إلى ما أكرمه الله تعالى به من قبل ويكون فى هذا أدب العبد ، حتى لا يطمئن على شىء من دون الله تعالى ، ولا يركن إلى ما سواه ، ويجل قدر ما أنعم الله تعالى عليه .

ووجه آخر : أن بمنى تمنى آدم — عليه السلام — الجنة ، فأكرم أولاد بإقامة شعائر ما به يجدون الجنة ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[1] .

وروى فى الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِذَا لَمْ يُوجَدْ نُقْصَانٌ فِى الصَّلَوَاتِ يُتَجَاوَزُ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ » .

وذلك لأن السعى : إشارة إلى إجابة الأمر والنهى . وملازمة الشريعة ، ليحقق ما أضمره فى السر من طريق الفعل ، وجعل ذلك التحقيق بالصلوات الخمس ، لأنها عماد الدين ، وجعلت البداية بالظهر ، لأنها أول صلاة نزلت على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — وافترضت على الخمس : لأنه بعد الخمس لا تقع على التكرار ، وبه العون .

ثم أمر بالخروج إلى عرفات ، لأنه لما أكرم بالقبول بطواف التحية ، وأكرم بالخدمة بمنى ، وبالمناجاة : أمر بالخروج إلى عرفات خارج الحرم ، لتعرفه نفسه : أن مثله يستحق المناجاة مع الملك الجبار ،

---

(١) من الآية : ١٨ من سورة التوبة .

ويستحق الضيافة ، وأراد له بالتعريف خيرا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً عَرَّفَهُ عُيُوبَ نَفْسِهِ » .

وجعل ذلك خارج الحرم : إكراما منه للعبد ، حتى لا يأخـذه الخجل والحياء للقرب .

ومعنى آخر : أنه لما قبل وأكرم بالخدمة والضيافة : أريد له الخير زيادة على الإكرام ، فيعرف بعيوبه . ليعرف قدر ما أنعم الله عليه ، لأنه إذا لم يعرف حقيقة نفسه ، يحسب أنه مستأهل لهذه الكرامة ، فيكون ذلك سبباً لكفرانه ، وذلك فضل الله على عباده : إذا أراد بهم الخير ، ولأن الخير عند الله عز وجل ، حيث قال عز من قائل :

﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾(١) .

والذى عند الله — عز وجل —فضله ، وجوده ، وكرمه ، وصفاته العليا ، وأسماؤه الحسنى ، فإذا أراد أن يريه هذه الأسماء : أكرمه بمشاهدة صفات البشرية ، ليصح له اللوذان والانقطاع إلى الله جـل جلاله . لأنه إذا عرف نفسه بصفة ، عرف سائر الخلق كمثله ، فحينئذ يصح انقطاعه . قال عز وجل :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢) .

---

(١) من الآية : ٦٠ من سورة القصص .

(٢) الآية : ٢١ من سورة الذاريات .

فنفسه مرآة ، فإذا عرف الله تعالى بصفاته : زينه بالمعروف والكفاية ، والطهارة عند الرمى ، والحياة عند الذبح ، والوصول إليه عند الحلق ، فإذا وصل دخل فراعى آداب الضيافة : ظاهرا وباطنا ، وسنذكر كل فصل إن شاء الله تعالى .

ومعنى آخر : قال : إنما يؤمر بالوقوف بعرفات ، ليعترف العبد بعيوب نفسه خارج الحرم ، فيكون ذلك سبباً يتوصل به إلى الوصول إلى معرفة الرب عز وجل ، قال عليه السلام .

« مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ : عَرَفَ رَبَّهُ » .

فمن عرف نفسه بنقصانها وحقارتها ، عرف الله عز وجل بصفاته وجلاله ، لأنه يعرف نفسه جاهلا ، ويعرف ربه عالما ؛ يعرف نفسه مذنبا ؛ ويعرف ربه غفورا ، يعرف نفسه فقيرا ، ويعرف ربه غنيا ، يعرف نفسه مقهورا ، ويعرف ربه قاهرا : فتكون معرفة نفسه سببا إلى معرفة ربه ، تعالى الله أن يكون فى ملكه ما لا يشاء ، إنه لطيف لما يشاء .

فإذا عرف الله عز وجل : استوجب المغفرة ، لأنه عرفه بأسمائه ، والأسماء إنما هى لتحقيق الطهارة ، ومن أسمائه : الغفور ، فبعلمه أنه الغفور : استوجب المغفرة للذنوب ، والمغفرة : لملاحظة نفسه بعين الطهارة ، والتبرى عن الاعتماد على حوله وقوته ، فحينئذ قرب من مولاه ، فصار عنده فى فضل الله تعالى ، فأذن له بالدخول إلى حرمه . وأمر بالوقوف بالقرب فى المزدلفة ، لأنها مأخوذة من الإزدلاف ، وهو :

القرب ، وضمن عنه التبعات ، لأن ما يلزم العبد من الذنوب ، فالمولى يكفيه وينوب عنه فى أداء ديونه ، فدخل العبد حينئذ فى الكفاية ، وصار طاهرا من التبعات والذنوب .

ثم يأتى جمرة العقبة ، فيرى بسبع حصيات إلى وجه الشيطان ، يؤنسه أن يتابعه أو يوافقه بعد أن غفر له الكريم — جل وعز — وضمن عنه ، ويظهر له الإياس فى الأربعة الأيام ، وينتقم منه بذلك الرمى من العيوب ، لأن أصل العيوب : نظره إلى الأسباب والآلات .

مراتب العباد فى رمى الجمار :

والعامة يرمون إلى وجه الشيطان : تؤنسه أن تتابعه .

وبعضهم يرمون اعتمادهم على ما سوى الله عز وجل من الأسباب والآلات إلى الشيطان ، لأن أول من نظر إلى الأسباب « إبليس » ، حيث قال :

﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[1] .

فطرد ولعن ، فيرمى اعتماده إلى وجه الشيطان ، لأنه كان ناظرا إليها ، (أى إلى الأسباب والآلات) ، ويعتمد على فضل الله عز وجل إذا شهده (أى الفضل) بعرفات والمزدلفة ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

---

(١) من الآية : ٧٦ من سورة ص .

« رَبَّكُمْ تُكَبِّرُونَ ، وَسُنَّةَ نَبِيِّكُمْ تَتَّبِعُونَ ، وَوَجْهَ الشَّيْطَانِ تَرْمُونَ » .

ومعنى قوله « ربكم تكبرون » : أى تقطعون نظر سركم عما سوى الله ، وتعتمدون على الله جل وعلا ، ومعنى التكبير : أن لا يرى العبد لنفسه ملاذا غير ربه تعالى ، وينقطع إليه عن كل ماسواه ، فإنك إذا انقطعت إلى ما سواه : لم تكبره ، ولم تعظمه ، والذى يدل على صحة هذا ما روى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم :

« أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : مَا لَهُمْ فى رَمْىِ الْجِمَارِ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَرِدُ إِلَيْهِ أَفْقَرَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَمَا يَرِدُ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يُؤْتَى نُوراً » .

فدل على أن حقيقة الرمى : هو رمى اعتماده على الأسباب إلى وجه الشيطان ، ألا تراه قال : « يرد إليه أفقر ما يكون إليه » .

والحجر لا يرد إليه ، وإنما يرد إليه ما يحتاج إليه ، لأنه رمى اعتماده على الأسباب ، واعتمد على ولى الأسباب ، وقبل رميه ، فإذا احتاج إليه رده إليه كأفقر ما يكون إليه ، وأدنى الأسباب : إنما هى الأموال فترد إليه إذا احتاج إليها ، إذا رمى اعتماده عليها .

ومعنى آخر : وهو أنه يبدل مكان اعتماده على الأسباب اعتماده على المسبب ، فيكون غناه كفايته ، واعتماده على الله تعالى .

ومعنى قوله عليه السلام : « يؤتى نورا » ، يعنى أسماء الله وصفاته ، إنها أنوار ، وصفات البشرية ظلمات ، قال عز ذكره :

﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1] .

أى من ظلمات البشرية إلى أنوار الربوبية .

وبعضهم يرمون رؤية هذه الرؤية ، ولا يضيفون هذه الرؤية إلى أنفسهم ، ولكن يرون الله تعالى ، وفضل الله عليهم ، أجرى ذلك عليهم وصفاهم من حيث إنه يختص برحمته من يشاء .

وبعضهم يرمون صفات أنفسهم ، من التزين : يعنى بصفات الخلق ، وصفاتها لا تحصى ، فيكرمون بصفات الحق ، جل اسمه ، وكلما صار طاهرا من العيوب : زين وقرب ، وتخلص من النظر إلى الأسباب والاعتماد عليها ، تخلص سره إلى الله عز وجل ، فقرب .

ومعنى القرب : ترك الاعتماد على غير الله عز وجل ، ومعنى البعد : الإعتماد على الأسباب ، فمن كان أقل اعتمادا على الأسباب كان أقرب ، ومن كان أكثر اعتمادا على الأسباب : فهو أبعد .

ثم لما قرب : أمر بقطع التلبية ، منذ أول حصاة رماها لأن التلبية فى حال البعد تكون ، فإذا قرب واتخذ الشيطان عدوا ، وأظهر بالرمى

---

(١) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

عداوته تولاه الله تعالى ، فانقطعت التلبية ، فأمر بتحقيق ذلك بالذبح .

الذبح ومراتبه :

قال : ثم يذبح فداء لنفسه ، لأنها حين وافقت الشيطان : استوجبت أليم الانتقام لله عز وجل بذبحها ، فأكرم بذبح فدائها : كرما من الله سبحانه ولطفا ، إنه لطيف لما يشاء .

فالعامة : ذبحهم الشاة . ويكون ذلك جوازهم على الصراط .

وبعضهم يذبحون أهواءهم : فيبدل مكان الهوى الهدى ، وربما يكرمون بالجواز على الصراط كالبرق الخاطف ، ويكون مركبهم الهدى .

وبعضهم ينحرون حولهم وقوتهم ، فيريهم الله تعالى بحوله وقوته وهم الذين يسار بهم على الصراط من غير أن يشعروا ، لأنهم جازوا على الصراط بالقدرة ، ونالوا كنزا من كنوز الجنة ، وهو قول « لاحول ولاقوة إلا بالله » ، فإذا كان قول « لاحول ولا قوة إلا بالله » كنزا ، فما ظنك بمن أكرم بتحقيق هذه الكلمة ؟؟ ، فزينوا بصفات الله تعالى مكان صفات أنفسهم ، وزينوا بالله مكان أنفسهم ، وهم الذين جازوا الصراط فى الدنيا ، فحيوا بالله جل وعز ، فأمروا بالحلق لينالوا الوصول إليه .

الحلق ومراتبه :

فبعضهم يحلقون نظر سرهم إلى الأسباب ، وبعضهم يحلقون رؤية هذا النظر ، وبعضهم يحلقون سرهم : فلا يبقى لهم سر ، والذى يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

« رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ ، قالها ثلاثاً ، فقيلَ لهُ : وَالمُقَصِّرِينَ ؟ فقالَ : وَالمُقَصِّرِينَ ، فقيلَ لهُ : ما لِلْمُحَلِّقِينَ ظَاهَرْتَ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لِأَنَّهُمْ لَمْ يَشُكُّوا » .

وإنما لم يشكوا : لأنهم حلقوا رؤية سرهم إلى الأسباب ، واعتمدوا على فضل الله تعالى ، والمقصرون لم يحلقوا نظر سرهم إلى الأسباب على الكمال ، فلهذا كانت الرحمة على المحلقين أكثر ، وهذا كان حال أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، فإنه حلق نظر سره إلى ما سوى الله عز وجل .

ألا ترى أنه أتى بجميع ماله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك مع نفسه شيئاً ؟؟ لا جرم قد تظاهرت عليه الرحمة ، قال صلى الله عليه وسلم :

« أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي : أَبُو بَكْرٍ » .

لذلك يزيد فضله على جميع الأمة ، فهذه المناسك كلها معادن التطهير ، حتى يكون عند الديان طاهرا : ظاهرا وباطنا .

بيان ظاهر المناسك وباطنها :

فالوقوف بعرفات : للذنوب ، ثم الوقوف الثانى للتبعات ، ثم الرمى للتبرى من موافقة الرجس ، وإظهار العداوة له بالرمى ، ثم الذبح للنفس إذ وافقت الشيطان ، لكن الكريم سبحانه أكرم بالفداء عن النفس ، ثم الحلق تطهير السر ، لأن الرأس به قوام الجسد . كما أن القلب به قوام الدين ، وهذه المناسك الظاهرة أقيمت مقام الباطنة ، وغير عجيب من الكريم سبحانه : إذا صفا أحد من خلقه فى الباطن من المشاهدات : أن يكرمه فى الظاهر بالمشاهدات .

قال أبو عبد الله — رحمه الله — : فلما تمت زينته أكرم بالضيافة والزيارة ، وأمر بترك الصوم ، لأنهم نالوا صفات الزيارة والوصول والضيافة بمنى ، ولهذا سميت « منى » ، لأن الإنسان إذا وصل إلى منى بهذه الكرامات والمشاهدات : فقد وصل إلى منيته ، وإنما لم يجز الصوم فى هذه الأيام : لأنه فى ضيافة الله عز وجل قدره ، فلا يقدر قدره أحد ، ويستحيل أن يباشر الصوم .

فإذا تمت له الضيافة : أمر بالتزين للزيارة ، فحل الطيب واللباس ، لأن هذا يصلح أن يتزين به الإنسان للزيارة ، ولم تحل النساء ما لم يزر لأن النساء حظ النفس ، وقد أكرمت النفس بالطهارة والقرب ،

فيجب أن تستوفى حظها من القرب ،فيزور أولا ، ثم بعد ذلك يشتغل بالنساء .

ومعنى آخر : قال : إنه أكرم بالزيارة ، فإنه لا يكون سوء أدب أن ينتفع بالمأكول والمشروب ، لأنه قد حل ، ويكون سوء أدب أن يأتى أهله وهو فى الضيافة ما لم يزر .

ومعنى آخر : لما حلق وذبح ورمى : فقد مات بنفسه ، وحي بمعناه ويحل فى الضيافة ، فيجب أن يغتسل بماء الحياء ، فيستحي لما قد ظهر منه من الخلاف والإعراض ، ويدخل فى المراقبة ، فيراقب الله فى سره ، ويذكر أن أهل الجنة يلقون من الله — جل جلاله — حياء لا يدخل فى الوصف ، لما عرفوا من أنفسهم ، فكذلك ها هنا ، لأنه شاهد ، فإذا شاهد : حينئذ يلبس لباس الحياء إلى الزيارة ، لأنه حي به ، فلا بد أن يلبس لباس الحياء للزيارة ، والزيارة مأخذها من الإزورار — وهو الميل — كأنه تعالى يميل بعبده إليه ، ويزينه بصفاته .

آداب الزيارة وكيفيتها :

قال أبو عبد الله رحمه الله : وإذا أتى البيت للزيارة ، فإنه يبدأ فيستلم الحجر ، اعتذارا لما ارتكب من الخلاف .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « كَانَ إِذَا رَأَى البَيْتَ يَقُولُ : اللهُ أَكْبَرْ ، ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، حَيِّنَا رَبَّنَا بِالسَّلَامِ ، ويرفع يديه » .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كان يفعل ذلك ويقول : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذلك للعامة . لأنه ليس ينكشف لهم معنى هذا ويكره للإنسان أن يدعو بدعاء لم يكشف له عن معناه ، كما ذكر أبو حنيفة رحمه الله « فى الجامع الصغير » ، أنه قال « يكره أن يدعو الرجل فيقول : اللهم إنى أسألك بمقعد العز من عرشك » وقد جاء فى فضل الدعاء حديث ، لكنه إنما كره ذلك : لأنه ليس ينكشف معنى هذا الدعاء لكل أحد ، وإن كان هذا الدعاء روى عن النبى صلى الله عليه وسلم .

كذلك يحتمل أن يكون نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن « حينا يا ربنا بالسلام » لمن لم يكشف له عن معناه ، فأما من كشف له عن معناه : فهو غير داخل فى هذا النهى — إن شاء الله — كما كان الصحابة يدعون به .

ومعنى قوله : « اللهم أنت السلام » أى من المعايب والمذام التى ذكرت اليهود والنصارى وأهل الزيغ — عفوك عفوك - لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا — وأنت السلام من الشركاء والأنداد .

ومعنى قوله : « ومنك السلام » أى منك بدأ هذا السلام حتى زينتنا به ، وبالإقرار به .

ومعنى قوله : « حينا ربنا بالسلام » : أى اجعل تحيتنا الحياة بك ،

كما قال أبو حمزة[١] ـ رحمه الله ـ « اللهم إنك تعلم أنى من أفقر خلقك إليك ، فإن كنت تعلم أن فقرى إليك لمعنى هو سواك ، فلا تسد فقرى » لأن من أسماء الله عز وجل أنه هو السلام ، فكأنه إنما يدعو هذا الدعاء لأنه جاء إلى الزيارة ، فقد حي بالحق ، فيقول : « أحينا ربنا بالسلام » .

ومعنى آخر : قال : أى أحينا بالسلام حتى لا نشرك بك .

وقت الرمى وكيفيته :

ثم إذا طاف طواف الزيارة . يرمى الجمار بعد الزوال ثلاثة أيام ، ويوم النحر غداة النحر قبل الزوال ، لأن الأوقات شاهدة للمؤمن يوم القيامة ، فيرمى فى اليوم الأول قبل الزوال ، وفى الثلاثة الأيام بعد الزوال ، ليكون كل وقت شاهدا للمؤمن ، ويكون فى كل وقت آخذ للقربة . ألا ترى أن الله جل وعلا قال :

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[١] .

فيستوفى ، وكذلك ليلة القدر على هذا وكل ذلك ليكون كل وقت جامعا لأنواع الطاعات .

---

(١) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادى البزار ـ رحمه الله تعالى ـ كان فقيها عالما بالقرآن ، وكان يتكلم ببغداد بمسجد الرصافة ، قبل كلامه فى مسجد المدينة . توفى سنة ٢٨٩ ﻫ .

(١) من الآية : ٥ من سورة الزمر .

طواف الصدر : كيفيته وتسميته :

قال أبو عبد الله رحمه الله : ثم يطوف طواف الصدر ، وسمى طواف الصدر ولم يسم « طواف الرجوع » ، ولا طواف الانصراف : لأنه يصدر متزودا من البيت ، ليس أن يرجع عنه وينصرف . فيطوف طواف الصدر : ليتزود بذلك .

ويطوف سبعة أشواط ، فيتزود من الشوط الأول : الاعتصام بالله تعالى فى سره ، فسر هذا التزود : الحرية والثبات على الطريقة المستقيمة وقال عز وجل .

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(١) .

هذا أول ما يجب عليه .

ثم يتزود فى الشوط الثانى : الاعتصام بحبله ، وهو القرآن ، وهو الاعتصام بالأمر والنهى ، وما ظهر لأهل الفضل وأهل العدل ، هذا ليحييه الحياة الطيبة ، قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(٢) .

---

(١) من الآية : ١٠١ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٩٧ من سورة النحل .

وقال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى : « لَنْ يَتَقَرَّبَ العَبْدُ إلىَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ » .

ثم يتزود فى الشوط الثالث : رؤية المنة ، قال سبحانه :

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاّ مَا سَعَى ، وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[١] .

لما أكرم بالسعى : أكرم برؤية المنة ، فرؤية المنة من الله تثمر له ترك العجب والتطاول على الناس ، وتثمر حسن العشرة والرحمة على من حجب عن حاله .

ثم فى الشوط الرابع : يتزود الشفقة بالله عز وجل . . .[٢] فيثمر له بركة ترك الطمع فى الخلق ، وحسن الألفة ، وحسن الانقطاع إلى الله عز وجل .

ثم فى الشوط الخامس : يتزود الرغبة إليه فى كل حادثة ، فيثمر له الحرية .

وفى الشوط السادس : يتزود الرهبة منه — لا من غيره — ، فيثمر له الملك ، لأنه ملك الملوك ، ومن خاف الله — عز وجل — خاف منه كل شىء ، قال تعالى :

---

(١) الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة النجم .
(٢) يوجد فراغ مكان النقط فى الأصل .

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[١] .

وفى الشوط السابع : يتزود الخشية وأن ما يفعل به الكريم أيكون بالدوام على هذه الأنوار أم يسلب ؟ ؟

ثم يصلى ركعتين فى المقام ، ويقدم إبراهيم والنبى — صلوات الله عليهما — شفيعين إلى الله تعالى أن يثبته على طريقهما ، ولا يفرق بينه وبينهما ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ أَحَبَّ قَوْماً فَهُوَ مِنْهُمْ » .

وعلامة المحبة : الاتباع والاقتداء بأخلاق المحبوب ، ولقد روى ذلك : فعسى أن يختم له عليه ، ثم يختم بتقبيل الحجر ، متزودا حسن الظن أنه عسى أن يغفر له . كما ذكر فى الحديث .

التوجه لزيارة الرسول عليه السلام وآدابه :

ثم يتوجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسلم عليه وعلى ضجيعيه[٢] رضى الله عنهما . ويحسن الظن بالله تعالى أنه ربما يبعثه فى قبلتهم مغفورا له مكرما ، ويعتذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وإليهما فيما كان منه من الخلاف فى بعض السنن والمناسك ، ويقدمهم شفعاء إلى الله عز وجل ،

---

(١) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٢) وهما الصاحبان : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

ليختم له على دين المصطفى صلى الله عليه وسلم وطريقته ، ويطوف بسره تحت أسرارهم ، وبظاهره تحت ظاهرهم ، فى سائر الفرائض والحقوق التى عليه ، غير مودع لهم بسره ولا بظاهره : اتباعا واقتداء ، إلى أن يأتيه اليقين . فيبشر بالروح والريحان ، والاتصال بهم على المشاهدة والعيان ، اللهم تفضل علينا بجودك وكرمك ، واجعلنا ممن يصلح لصحبتهم ظاهرا وباطنا ، وحياة ومماتا بمنك .

من معانى اجتناب الصيد للمحرم :

قال : ثم ما دام محرماً : يجتنب الصيد ، قال الله تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾(١) .

فصيد البحر : حلال له ، لا يحتاج فيه إلى الدعاء ، والبحر هو بحر الأنوار التى فى السر ، لأنه لا يفنى ، وهو نور المعرفة والتوحيد والإيمان الذى فى القلب ، والصيد فى هذه البحور فى كل وقت حلال ، وصيدها : المشاهدات وهى الأسماء والصفات ، فكما أنه لا يقطع أغصان أشجار الحرم ، ويجب عليه الكفارات إذا قطعها : كذلك الأنوار التى فى الأسرار ، وهى الأسماء ، يجب أن يضيفها إلى الله ، فإذا أضاف إلى غيره بالحقيقة فقد قطع من شجر حرم القلب ، فتجب عليه الكفارة .

---

(١) من الآية : ٩٦ من سورة المائدة .

وأما البر فهى الأغصان ، وهى مواضع الابتلاء والمحنة ، شهد تحقيق ما فى سره من حسن الانقياد لحكم الله واتباع أمره ، فهذه المنافع التى أشهدتها ، فإن اعترض معترض ، أو نازع : لفضل علمه ، أو قصور علمه ، وابتغى ظاهر السنن اتباعا : «فبخ بخ»[1] ، وبالله نستعين فى ترك الجدال والمراء .

وقد أعطينا العباد فى البيان أن كلا شهد من المنافع مقدار ما يكشف له ، ونعوذ بالله من التزين للخلق ، ونسأله أن يكرمنا باندراج ما شهدناه من المنافع تحت ما شهده المصطفى صلى الله عليه وسلم إتباعا ، واقتداء ، وائتساء ، إنه بعباده لطيف رءوف رحيم .

حدثنا أبو نصر بن سهل ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن أيوب ، حدثنا عبد السلام بن مطهر . قال حدثنا نافع أبو هرمز ، قال حدثنا أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام : يا آدم حج هذا البيت قبل أن يحدث عليك حدث ، قال يا رب وما يحدث على ؟ قال : ما لا بد لك منه . وهو الموت ، قال : وما الموت ؟ قال سوف تذوقه ، قال فمن أستخلف فى أهلى ؟ قال الله عز وجل : أعرض ذلك على السموات والأرض والجبال ، فعرضه ، فأبت لقتل ابنه قابيل لأخيه هابيل فخرج آدم عليه السلام من أرض الهند حاجا ، فما نزل منزلا وأكل فيه وشرب

---

(١) بخ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء .

إلا صار عمرانا بعده وقرى ، حتى قدم مكة ، فاستقبلته الملائكة عليهم السلام بالبطحاء ، فقالوا : السلام عليك يا آدم ، أتتعجب من حجتك ؟ أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام » .

قال أنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والبيت يومئذ ياقوتة حمراء جوفاء ، لها بابان ، من يطوف به يرى جوف البيت ، ومن في جوف البيت يرى من يطوف به ، فقضى آدم عليه السلام نسكه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم قضيت نسكك ؟ قال نعم يارب ، قال عز ذكره : فسل حاجتك تعط ، قال يارب : حاجتي أن تغفر ذنبي وذنب ولدي . فقال عز وجل : أما ذنبك يا آدم فقد غفرناه ، وأما ذنب ولدك فمن عرفني وآمن بي وبرسلي وبكتبي غفرنا له ذنبه » .

وعن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لَمَّا نَادَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَجِّ ، لَبَّى الْخَلْقُ ، فَمَنْ لَبَّى تَلْبِيَةً وَاحِدَةً : حَجَّ حَجَّةً وَاحِدَةً ، وَمَنْ لَبَّى مَرَّتَيْنِ : حَجَّ حَجَّتَيْنِ ، وَمَنْ زَادَ فَبِحِسَابِ ذَلِكَ » .

قال أبو عبد الله : وإذا رأى قرية — يريد نزولها — دعا بها .

روى صهيب — رضي الله عنه — « أَنَّ رَسُولَ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لم يَكُنْ يَرَى قرية — يُرِيد نزولها — إلا قال حين يَرَاها :

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ : فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هٰذِهِ القَرْيَةِ ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرِّ أَهْلِهَا ، وَشَرِّ مَا فِيهَا » .

وعن عمر بن الحكم ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : سألت عبدالله ابن سلام — رضى الله عنهما — عن الأثر الذي في المقام ، فقال : « لما أمر إبراهيم — عليه السلام — أن يؤذن في الناس بالحج ، قام على المقام . فارتفع المقام حتى صار أطول من الجبال ، وأشرف على ما تحته فقال : يأيها الناس أجيبوا ربكم تعالى ، فأجابه الناس ، فقالوا : لبيك اللهم لبيك ، وكان أثره فيه لما أراد الله تعالى ، وكان ينظر عن يمينه وعن شماله ، أجيبوا ربكم تعالى ، فلما فرغ أمر بالمقام فوضع قبلة ، فكان يصلي إليه مستقبل الباب ، فهو قبلته إلى ما شاء الله عز وجل ، ثم كان إسماعيل عليه السلام بعد يصلي إلى باب الكعبة ؛ ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر أن يصلي إلى بيت المقدس فصلى إليه قبل أن يهاجر ، ثم أمر أن يصلي إلى الكعبة ، فصلى إلى الميزاب وهو بالمدينة ، ثم قدم مكة فكان يصلي إلى المقام — ما كان بمكة » .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما . أن إبراهيم عليه السلام ، لما أتى الثالثة وجد إسماعيل عليه السلام قاعدا تحت الدوحة إلى ناحية البئر ، فسلم عليه ، ونزل إليه فقعد معه ، فقال إبراهيم عليه السلام : إن الله أمرني بأمر ، قال إسماعيل عليه السلام : فأطع ربك فيما

أمرك ، قال إبراهيم عليه السلام : أمرني ربي أن أبني له بيتا ، قال إسماعيل عليه السلام : فأين ؟ فأشار إلى أكمة بين يديه مرتفعة ، فقاما يحفران على القواعد ، ويحمل إسماعيل عليه السلام الحجارة على رقبته ، ويبني إبراهيم عليهما السلام ، فلما ارتفع البنيان قرب له إسماعيل عليه السلام هذا الحجر فكان يقوم عليه ، ويحوله في نواحي البيت ، حتى انتهى وجه البيت ، وذلك هو مقام إبراهيم عليه السلام ومقامه عليه .

وحدثني أبو بكر بن يحيي الأصفهاني ، عن سفيان : أن الحجر كان يرتفع لإبراهيم عليه السلام في بناء البيت على مقدار ما يحتاج إليه في الارتفاع والانخفاض .

قصة حفر بئر زمزم :

قال أبو عبد الله : وأما سبب بئر زمزم ، فكما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين أم اسماعيل بن إبراهيم وبين سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ما كان ، فأقبل نبي الله إبراهيم عليه السلام بأم إسماعيل وإسماعيل وهو صغير ، حتى قدم بهما مكة ، ومع أم إسماعيل شنة[1] فيها ماء تشرب منه ، وليس معها زاد .

قال ابن عباس : فعمد بها إلى دوحة فوق زمزم ، فوضعهما تحتها ، ثم توجه إبراهيم عليه السلام خارجا على دابته ، واتبعت أم إسماعيل عليه السلام أثره ، فقالت له : إلى من تتركني أنا وولدي ؟ قال : إلى الله

---

(١) الشنة : هي القربة الصغيرة ، يكون فيها الماء أبرد من غيرها .

عز وجل ، قالت : رضيت بالله ، فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها ، حتى قعدت تحت الدوحة . ففنى ما فى شنتها ، فانقطع درها ، فجاع ابنها، فصعدت إلى الصفا هل ترى أحداً بالوادى ، ثم صعدت إلى المروة ، فمشت بينهما ثلاث مرات ، أو أربع مرات . ثم رجعت إلى ابنها ، فوجدته كما تركته فأحزنها ، فعادت إلى الصفا والمروة ، حتى كان مشيها فيهما سبع مرات ، قال ابن عباس : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم :

« وَلِذَلِكَ يَطُوفُ النَّاسُ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ » .

قال: ثم رجعت تطالع ابنها ، فوجدته ينشع[1] للموت ، فسمعت صوتا ولم يكن معها أحد غيرها ، فقالت : قد سمعت صوتك فأغثنى إن كان عندك خير ، فخرج لها جبريل عليه السلام فتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر ، حتى ظهر ماء فوق الأرض ، فجاءت بشنتها ، فاستقت وشربت ، فدرت على ابنها ، فبينما هى كذلك إذ مر ركب من « جرهم » ، قافلين من الشام ، فرأى الركب الطير على الماء ، فأتى الركب كلهم إليها ، حتى حيوها ، فردت عليهم ، وقالوا : لمن هذا الماء ؟ قالت هو لى ، قالوا : أتأذنين لنا أن نسكن معك عليه ؟ قالت نعم ، قال : فنزلوا ، فكتبوا إلى أهليهم وقدموا ، وسكنوا تحت الدوحة .

قصة جرهم مع الكعبة :

ثم إن جرهم لما وثبت بحرم البيت ، وأكلوا مال الكعبة ، وارتكبوا

---

(١) ينشع : أى يشهق حتى كاد أن يقضى عليه .

مع ذلك أموراً عظاما : نضب[١] ماء زمزم وانقطع ، فلم يزل موضعه يدرس ، وتمر عليه السيول ، حتى غير مكانه . وكان عمرو بن الحارث يعظهم ، فلما لم يبرحوا عمد إلى غزالين من ذهب وأسياف للكعبة ، فحفر ليلا فى موضع البئر ، ودفنه سراً منهم حين خافهم ، فسلط الله عليهم خزاعة ، فأخرجوهم من الحرم ، ووليت خزاعة الكعبة والحرم ماشاء الله عز وجل ، وموضع زمزم لا يعرف ، حتى بوأه الله لعبد المطلب ابن هاشم .

قال على رضى الله عنه قال عبد المطلب : إنى لنائم فى الحجر إذا أتانى آت ، فقال : احفر طيبة ، قال : فقلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فرجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر زمزم ، قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف ولا تزم ، تسقى الحجيج الأعظم ، عند قرية النمل . قال فلما بان له شأنها غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث، ليس له يومئذ ولد غيره . فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطى : طى البئر ، كبر ، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب وأسيافا وأدرعا وسلاحا، وهى التى دفنها عمرو بن جرهم ، فقالت له قريش : إنا معك فى هذا شركاء ، فأبى ذلك عبد المطلب ، ولم يدفع إليهم ، فضرب عبد المطلب الأسياف على باب الكعبة ، وضرب أحد الغزالين عليها ، وجعل الآخر فى بطن الكعبة ، فلم يزل كذلك حتى أخذه النفر الذى كان من أبى جهم

(١) نضب الماء : أى غار فى الأرض .

ما كان ، وقصته وأمره مكتوب فى غير هذا الكتاب ، وصارت زمزم تحت الأرض ، وكانت قبل ذلك فوق الأرض .

والحطيم حطيمان : أحدهما الذى فيه الميزاب ، سمى حطيما لأنه حطم من البيت .

وأما الحطيم الآخر : فإنه روى ابن جريج أن الحطيم ما بين الركن والمقام وزمزم حذاء البيت ، وسمى حطيما لأن الناس كانوا يحطمون هناك بالأيمان ، ويستجاب فيه دعاء المظلوم على الظالم ، فقل من دعا هناك على ظالم إلا هلك ، وقيل : من حلف هناك آثماً حلت به العقوبة .

فكانت تحجر[1] الناس عن الظلم ، ويتهيب الناس الأيمان ، فلم يزل ذلك كذلك ، حتى جاء الله بالإسلام ، وأخر ذلك لما أراد إلى يوم القيامة .

تم بحمد الله وحسن عونه ، وصلى الله على محمد نبيه ، وعلى آله ، وسلم كثيراً ، نفع الله كاتبه ، ورزقه التحلى بما فيه بفضله .

---

(١) تمنع .

ملحق الفهارس

١ – فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٢ — فهرس الأعلام

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(س)

٣ – فهرس المواضع


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر – شارع الجنداوي رقم ١٢